CA
244:K45A

خير الله ، أمين ظاهر.

دروس الحياة الانسانية .

CA
244
K45A

30 SEP 1986

14 Feb 67

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
CA 244 K45A C.1
Gift Prof. Dodge Oct. Jan 1930

كتاب

دروس الحياة الانسانيَّة

في

مدرسة الله النباتيَّة

بقلم

امين ظاهر خيرالله

«ان المبروءات المحدودة تنطق بلسان صمتها عن تمام حكمة البارىء الغير المحدود»

38448

طبع بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٠٩

باسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

توطئة

حياة الدنيا . الدين القويم . العقل السليم . المشابهة بين حياة الناس والنبات والاشجار عرضت لايوب . ولداود . ولهوميرس اليوناني . وليوحنا الصابغ . وللرب يسوع . وللرسل يعقوب ويوحنا وبطرس وبولس . نشر شيء عن معيشة العيال في نيويورك .

حياةُ الدُّنيا جِهادٌ متواصلٌ ينتهي بالانحلالِ الطبيعيِّ والبَطَلُ كلُّ البَطَلِ في معركةِ الحياةِ مَن ظهرَ حكيماً في اختيارِ موقِفِهِ واتِّباعِهِ إمرةَ الرُّشدِ في تصرُّفاتِهِ فخاضَ ذاكَ المُعتَرَكَ بقدَمٍ هاديةٍ وحازَ في سبيلِ الكرامةِ تقدُّماً غيرَ مدفوعٍ فأفلحَ مسعاهُ وزانَ رأسَهُ غارُ المجدِ وحقَّ لهُ الانتظامُ بينَ ذوي الأكاليلِ يومَ يجمعُ ربُّكَ العبادَ من ظُلماتِ الألحاد

وقد أنزلَ اللهُ دينهُ القويمَ يهدي الناسَ المنهاجَ السويَّ للنَّجاة منَ المعاثرِ والفوزِ بالمفاخر فيُسفِرُ جهادُ الحياةِ عنِ المِنَّةِ الجُلَّى التي أعدَّها اللهُ سبحانهُ وتعالى لِمن سلِمت مناقبُهُ منَ المثالِب . وانطوَت سرائرُهُ على نقيِّ الرَّغائب . وفاحت نوافحُ اقوالهِ عُطورا . واشرقت فعالُهُ في سماءِ الفضيلةِ شموساً

وبُدوراً

ولم ينفردِ الدينُ بتلكَ المَهمَّةِ — مَهمَّةِ الترغيبِ في حياةِ الصلاحِ والتنفيرِ من معيشةِ الطَّلاح — فانَّ العقلَ السليمَ ما برحَ داعياً الى التبصرةِ الحميدةِ للفوزِ بالحياةِ السعيدةِ فيذكي منارَ الهدايةِ ليتَّجهَ كلُّ خاطرٍ سيراً على جادَّةِ الصوابِ فينتهي الى محجَّةٍ كريمةٍ هي الإيقانُ الذي لا تتزعزعُ اركانُهُ بأنهُ لا حياةَ الاَّ باتِّباعِ ناموسِ العليِّ المُنزَلِ من لَدُنهُ تعالى رحمةً بالعالمين

فالعاقلُ الباحثُ في منجَمِ الوجودِ الكونيِّ لاستخراجِ فرائدِ الفوائدِ الحقيقيةِ لترصيعِ عقدِ الحياةِ الدينويّةِ يفتحُ اللهُ عليهِ ان يبلُغَ أُمنيَّتَهُ بقوَّةِ الحجةِ الدامغةِ والدليلِ المُقنع فتراءى لبصيرتهِ تلكَ الدُّررُ واحدةً فواحدةً

نُسِّقتْ مثلَ الزَّواهرِ قدْ لمعتْ في قُبَّةِ الجلَدِ
تملأُ القلبَ اشعَّتُها من ضياءِ الأُنسِ والرَّغدِ
فهيَ أغلى ما يقومُ على حفظِها ذو الرأيِ والرَّشدِ

وقد غاصَ العقلُ في بحارِ التأملاتِ فأتى بالحقائقِ العلميةِ التي وضعَ على نتائجها واجباتِ جهادهِ ليكونَ سعيدَ الختامِ خالدَ الأثرِ الكريمِ فوقفَ تلكَ الحقائقُ بإبلاغهِ السُّؤلَ وهدتهُ الى ما يجبُ أن يتقلَّدَ بهِ في دُنياهُ الفانية

ولم يقتصرِ (العقلُ) علَى الاسترشادِ بتلكَ الطريقةِ لأَنهُ وَجدَ منَ الطبيعةِ الصامتةِ فمًا بليغَ التعبيرِ صادقَ التقريرِ يتكلمُ بكلِّ ما يقَعُ تحتَ الباصرةِ منَ الزواهرِ والأَزهارِ · والبُحيراتِ والبِحارِ · وما يطيرُ في الفضاءِ ويَامعُ في السماءِ ويغوصُ في لُججِ الماءِ ويدبُّ علَى وجهِ الثراءِ ويلتهبُ في احشاءِ الثَّرى · وكلُّ كلامهِ دروسٌ تُلقّنُهُ ما هيَ الواجباتُ الانسانيةُ للحصولِ على الحياةِ السعيدةِ وَهيَ لا تتقاضى منهُ ثمنًا من مواصلتِها خدمتَها لهُ بدونِ انقطاعٍ الاَّ أَن يُضيءَ نبراسَ بصيرتهِ واليها اشارَ صاحبُ سِفرِ الحِكمة بقولهِ مخاطبًا بارئَ الوجود « ان في كلِّ شيءٍ رُوحكَ الذي لا فسادَ فيهِ · فبهِ توبّخُ الخَطأَةَ شيئًا فشيئًا وفيما يخطأُونَ بهِ تذكّرُهم وتُنذرُهم لكي يُقلِعوا عنِ الشرِّ ويؤمنوا بكَ ايها الربُّ » (حك ٢ : ١ و ٢) وبقولهِ « فانهُ بعِظَمِ جمالِ المبروءاتِ يُبصَرُ فاطرُها على طريقِ المُقايَسةِ » (حك ١٣ : ٥) والان أَطرحُ بينَ أَيدي الأُدباءِ دُروسَ الحياةِ التي نُطالعُها مراراً في مدرسةِ اللهِ النبَّاتيَّةِ ولي الاملُ أَن تكونَ فوائدُها الادبيةُ ذاتَ وَقعٍ حسنٍ عندَ العمومِ فتشتدَّ الرَّغبةُ في إِعمالِ الفِكرةِ في استجلابِ المنفعةِ التهذيبيةِ من مطالعَ شتَّى فيتروَّضَ عقلُ المطالعِ وتقتاتَ روحهُ الواردةُ من نفخةِ اللهِ بخيرِ مأكلٍ مُحيٍ ومشربٍ نقيٍّ منعِش

وأرى الكلامَ عنِ المُشابهةِ بينَ حياةِ النـاس والنباتِ والأَشجارِ قد خَطرت لِكثيرينَ في كِتابِ اللهِ العهدِ القديمِ والعهدِ الجديدِ. ففي سفرِ أيُّوبَ قد وردَ لبلدَدَ الشوحيّ «أينمو البَردِيُّ في غيرِ المُستنقَعِ ام ينشأُ الحلَفُ حيثُ لا مياهَ. ومعَ أنهُ يخضرُّ ولا يُقطعُ يذوي قبلَ سائرِ النَّباتِ. كذلك تكونُ سُبُلُ مَن ينسى اللهَ وأملُ الكافرِ يخيبُ. تتقطعُ أمانيُّهُ وتكونُ عُمدَتُهُ بيتَ عنكبوت. يستندُ الى بيتهِ وليسَ بِثابتٍ ويتعلَّقُ بهِ وهوَ غيرُ قائم. انمَّا هو شجرةٌ تخضرُّ تُجاهَ الشمسِ وتنبسطُ أغصانُها على بُستانِها وتَشتبكُ عُروقُها على الصخرِ وتدخلُ الى مقرِّ الحِجارةِ لٰكنها اذا استأصلها مُستأصِلٌ أنكرَها مكانُها أنْ لم أعرِفكِ قطُّ. ذٰلك مُنتهى حظِّها ومن تُربتها تَنشأُ اخرى. فاللهُ لا يرذُلُ السليمَ ولا يأخُذُ بأيدي المُجرِمين» (ايوب ٨: ١١ — ٢١) وهذا القولُ نصٌّ صريحٌ عن درسٍ حقيقيٍّ يُمثِّل حالةَ الشرّيرِ وسرعةَ زوالِ النعمةِ عنهُ وإنكارِها إيَّاهُ

ولداودَ عشيرِ الطبيعةِ في زمنِ الصبوةِ تلك المواعظُ البليغةُ في الازهارِ والاشجارِ فتارةً يذكُرُ بها امّحاءَ ذِكرِ الأَثيمِ كقولهِ «اذا نبَتَ المنافقونَ كالعُشبِ وأزهرَ فاعلو الإثمِ جميعاً فانما هو ليُستأصَلوا الى الأبدِ» (مز ٩٢: ٧) وطَوراً يَضرِبُ بها

المَثَلَ عن الصِدّيقِ كقولهِ « الصدّيقُ كالنخلِ يزهرُ ومثلَ أَرزِ لُبنانَ ينمي · المغروسونَ في بيتِ الربِّ يزهرونَ في دِيارِ إلهِنا · في المَشيبِ نفسهِ يُثمرونَ ويكونونَ سِمانًا أَغضةً فيُخبرونَ بأَنَّ الربَّ مستقيمٌ »(مز ٩٢ : ١٣ — ١٦) · وطورًا يأْخذُ منها دليلاً على قِصَرِ الحياةِ العالميةِ فيقولُ « الانسانُ أَيامُهُ كالعُشبِ وانما يُزهرُ كزهرِ الحقلِ · هبَّت عليهِ ريحٌ فلم يكن ولم يَعرفْهُ موضعهُ من بعدُ » (مز ١٠٢ : ١٥ و ١٦) · وقد اتى الشاعرُ اليونانيُّ هوميروسُ بما يدنو من هذا المَعنى اذ قال بلسانِ أَحدِ أَبطالِ الياذتهِ

فقالَ علامَ اقتصصتَ الخَبَرْ ونحنُ كاوراقِ هٰذي الشجرْ
فبعضاً يُبيدُ الهواءُ وبعضُ عَلَى منبتٍ بائدُ النَّبتِ غضّْ
وكلٌّ عَلَى إِثرِ كلِّ مشى جَيلٌ تلاشى وجيلٌ نشا

فابانَ بذٰلكَ درساً عن تعاقُبِ الاجيالِ البشريّةِ وهوَ الدرسُ الذي نصَّ عليهِ الحكيمُ ابنُ سيراخَ بقولهِ « كلُّ جسدٍ يَبلى مثلَ الثوبِ لانَّ العهدَ من البدءِ أَنهُ يموتُ موتاً · فكما أَنَّ اوراقَ شجرةٍ كثيفةٍ بعضُها يسقطُ وبعضها ينبتُ كذلك جيلُ اللحمِ والدَّمِ بعضُهم يموتُ وبعضُهم يُولَد » (١٤ : ١٨ و ١٩)

وقد علَّمَ اللهُ نبيَّهُ يونانَ بالخِروعةِ درساً واياً درسٍ فأفهمهُ

وَهوَ النبيُّ حقيقةً من حقائقِ اللهِ الساميةِ وهي غزارةُ حنوِّهِ الذي يُريدُ ان يخلصَ الناسُ أجمعَ فاذا كانَ اللهُ يعلّمُ نبيَّهُ بالخِروَعَةِ (٤: ٥—١١) أفليسَ من الحكمةِ أن نتلقّى نحنُ عن الازهارِ فتكونَ دروسُنا ودرسُ النبيِّ في كتابٍ واحد

واماَّ ملاكُ الفِداء فقد ضربَ الامثالَ العديدةَ عن الخلاصِ وتصرُّفاتِ الانسانِ بالاشجارِ والزَّرعِ والحُبوبِ ففي قولهِ «من ثِمارِهم تعرفونهم» (متى ٧: ٢٠) مثَّلَ لنا الناسَ اشجاراً واعمالهم ثمارَها. ولنا في تقسيمِهِ الناسَ الى اربعِ فئات بمثل الزرع (مت ١٣: ٣ — ١٩). وفي ضربهِ المثَلَ عن أناةِ اللهِ ثم استخلاصِ مُختاريهِ من عِدادِ الاشقياءِ بمَثَلِ الزَّرعِ ايضاً (مت ١٣: ٢٤ — ٣١) وفي ضربهِ مَثَلَ نموِّ النعمةِ السماويةِ (مت ١٣: ٣١ — ٣٣) ادلَّةٌ مُثبتةٌ مِقدارَ تأثيرِ تلكَ الأُمورِ الحِسيّةِ في إيضاحِ الحقائقِ الروحية. وقد أوردَ لنا بمَثَلِ الحَصادِ (مر ٤: ٢٦) عن نِهايةِ الدنيا وبمَثَلِ الكرمِ (مرقس ١٢: ١ — ١٠) ايضاحاً لرحمتهِ الرهيبةِ والعادلة. وبمَثَلِ خصْبِ كورةِ الغنيّ (لو ١٢: ١٦ — ٢١) عن فيَضانِ المراحمِ الالهيةِ وعن اساءةِ التصرُّفِ بها حتى يردُ عنها الانتقامُ السماويُّ بدَلاً من اجتناءِ النعيمِ الأبديّ. وبمثل التينةِ (لو ١٣: ٦ — ١٠) بيانَ أناةِ اللهِ

وإعدادِهِ للبشرِ كلَّ وسائلِ الخلاصِ حتى يُثمروا الخيرَ ويستحقُّوا نعمةَ النعيمِ السماويِّ. وضربَ المثلَ عن نفسهِ بالكرْمةِ (يو ١٥: ١ — ٩) وهو غايةُ الغاياتِ في إكرامِ المرئيَّاتِ الطبيعيةِ اذ كانت كشُعاعٍ يُبينُ مقدارَ النورِ الالهيِّ فاكتفي بالاشارةِ الى هذهِ الامثالِ الالهيةِ التي يجبُ علينا ان نرتشفَ موارِدَها النقيَّةَ ونحمدَ واضعَها المتحنِّنَ القدُّوسَ

واما الملاكُ السابقُ والنبيُّ الصابغُ فقد قالَ «كلُّ شجرةٍ لا تصنعُ ثمرًا جيدًا تُقطعُ وتُلقى في النارِ» (مت ٣: ١٠) فأفهمنا بألطفِ عبارةٍ واصدقِها ما أُعدَّ للأثَمةِ من العقابِ الشديدِ ممثِّلاً لنا ذلكَ المشهدَ المُخيفَ بأوضحِ الادلَّةِ واقربِها تناوُلاً

واما الرسلُ ملائكةُ التبشيرِ فقد وجدوا بالنَّهجِ في هذا السبيلِ ايضاحًا للحقائقِ الروحيةِ فيعقوبُ اخو الربِّ شبَّهَ البرَّ بالشجرِ او بالثمرِ (٣: ١٨) وضربَ مثلَ الصلاةِ الملائمةِ بينَ الايمانِ والاعمالِ بالشجرةِ وثمرِها (٣: ١٢) ومثَّلَ سرعةَ زوالِ الغنى بالعُشبِ (١: ١٠ و ١١). ويوحنا الحبيبُ اذ شاءَ ان يُوضحَ العلاقةَ التي بينَ اللهِ ومخلوقِهِ دعاها زرعًا (١ يو ٣: ٩). واما الرسولُ بطرسُ فانَّهُ أبانَ لنا ما هيَ هذهِ الحياةُ الدُّنيا وما هيَ كرامتُها بقولهِ «كلُّ جسدٍ كعُشبٍ وكلُّ مجدِ إنسانٍ كزهرِ عشبٍ. العشبُ

يبسَ وزهرُهُ سقَطَ» (١ بط ١: ٢٤) والرسولُ بولسُ يُزيلُ غرابةَ قيامةِ الاموات بمثَلِ الزَّرعِ فيقولُ «الذي تزرَعُهُ لا يَحيا إنْ لم يَمُتْ» (١ كو ١٥: ١٦) ويتبعُ بهذهِ القضيةِ قضايا متناسقةً معاً كالحبوبِ الناميةِ في السُّنبلةِ الواحدةِ حتى يأتيَ على مايُزيلُ كلَّ وَهمٍ ويثبتَ تلكَ الحقيقةَ الجليلة

وانني في كتابي هذا سأُلِمُّ بكثيرٍ من شؤونِ الحياةِ بانتهاجِ هذا السبيلِ على غيرِ استقصاءٍ في البحثِ لانَّ المواضيعَ متوفرةٌ والموادَّ متعدِّدةٌ والله المسؤولُ ان يكونَ ما أُوردُهُ مُفيداً فذلكَ حسبي وكفى

وقد توخَّيتُ أن أُدرِجَ في خلالِ الفصول شيئاً مما أعرِفُهُ عن مدينةِ نيويورك مما يحسُنُ نشرُهُ ويُفيدُ تاريخياً وأدبياً فترِدُ فوائدُ بيتيَّةٌ مقصودةٌ على أُسلوبٍ يُشعِرُ بأنها وردتْ عفواً وهيَ كذِكرى لإقامتي في هذهِ المدينةِ من ١٧ ت ١ حساباً غربياً من سنة ١٩٠٤ الى ٢٥ ايار حساباً غربياً من سنة ١٩٠٧ وكتفكهةٍ للمطالعينَ في سوريةَ فيعثرونَ على اشياءَ لا يعرِفونها في مدُنِهم ولعلَّ في ذكرِها فائدةً فانَّ في الوقوفِ على أحوالِ السوى ولا سيَّما سكَّانَ المُدُنِ الراقيةِ الحضارةِ تبصرةً للأفهامِ وغِبطةً للخواطرِ وهما ما تخيَّرتُ في ما اوردتُ والسلام

الفصل الاول

الرجل والمراة

موقع البيت . وظيفة رب المنزل . ربّة المنزل . اولادهما . طريقة في اشتراء المساكن . الكلام عن سكنى الانفراد وسكنى الاماكن الآهلة بالسكان الكثيرين . المرأة . الرّجل

« الرجل يحيا للشعب ، والمرأة تحيا لزوجها وبنيها ، وحياة الجميع لله »

سُبحانَ مَن بَرَأَ الأَنا مَ بَداءةً ذَكَرًا وأُنْثى
ولِآدمٍ وبَنيْهِ خَوَّلَ كلَّ مَكْرُمةٍ ونُعْمى
فالمَرءُ ذو الجِسْمِ القويِّ اختارَهُ للشَّعبِ يَسْعى
والمرأةُ النوعُ اللَّطيـ ـفُ لزَوجِها والنَّسلِ تَحْيا
وحياتُنا طُرًّا لمجدِ اللهِ في سِرٍّ ونَجْوى

عَلَى ضفَّةِ نهرِ هدسنَ المارِّ في مدينةِ نيويورك قامَ في الجانبِ الشماليِّ حيثُ أبنيةُ المدينةِ متباعدةٌ منزلٌ احاطت بهِ امن جِهاتهِ الأربعِ حديقةٌ غنّاءُ حوَتْ صنوفًا عديدةً من

الأشجارِ والرياحينِ فاصبحَ كأنهُ ديرٌ قد انقطعت رُهبانهُ عن العالمِ زهدًا

وقد قطنتُ في هذا المنزلِ عائلةُ رجلٍ من ذوي المكانةِ في عالمِ الكرامةِ يُدعى المسترَ بولسَ كانَ يلي رئاسةَ الشرطِ الخفيةِ[١] وهي مرتبةٌ منظورةٌ ولا سيما في مدينةٍ سكانُها ينيفونَ على اربعةِ ملايينَ تألفوا من أممِ الارضِ قاطبةً[٢] وفيها من المصارفِ المختزنةِ قناطيرَ الذهبِ ما لا مثيلَ لهُ فهي مطمحُ عيونِ ذوي المكرِ واللصوصيةِ من ممالكِ العالمينَ اجمع

فكانت مهامُّ ربِّ هذا البيتِ تقضي عليهِ ان يظلَّ متغيبًا عن مسكنهِ لانَّ الاسرارَ البعيدةَ الغورِ[٣] المحيطةَ دائمًا بالحوادثِ التي يُلقى على عاتقهِ استجلاؤُها كانت لا تُبقي لهُ وقتًا فارغًا فهو في شُغلٍ شاغلٍ لا ينقطعُ ليلاً ولا نهارًا

وكانَ هذا الرجلُ قد هداهُ اتباعُ الحكمةِ الى الاقترانِ وهوَ في مُقتبلِ الشبابِ بآنسةٍ تدعى اليصاباتَ أعجبهُ ذكاؤُها ووداعتُها كما أعجبتها رصانتهُ وصدقُ لهجتهِ فرُزقا سبعةَ اولادٍ ثلاثةَ بنينَ واربعَ بناتٍ كانوا هم موضوعَ اهتمامهما ومقرَّ

(١) يلي يملك الامر . الشرط السلك المعروف بالبوليس (٢) جميعًا
(٣) القعر من كل شيءٍ

آمالهما في هذه الدُّنيا

واستقرارُ هذه العائلة في ذاك المنزل وَرَدَ عن تمنُّع أصحاب المنازل المعدَّة بالأُجرة من اعطائها مسكناً لائقاً بها جرياً على عادة متَّبعة عند معظم سكَّان نيويورك وهي اعتبارُ كِبَر العائلة باعثاً لإيقاع الاذى على المنزل لانَّ الاطفال لا يُخلدون الى الامتناع من الحركة والى الخروج من المنزل سحابة النهار فلذلك يقولُ اربابُ المنازل ان سكنى أرباب العيال مَدعاة الى إتلاف المساكن . ويشاركهم في التذمر من البنين زُمرةُ المستأجرين الذين ليس لهم بنون . فكأنَّ التمدُّن الكاذب يحاولُ بهذا المبدإ الذميم مُقاتلة نموّ العيال والرجوع الى عُصور الظُلمات عُصور وأْدِ البنات[1] وتضحية البنين . ولذلك يميلُ معظمُ سكَّان نيويورك الى أن لا يكون لهم نسل . ولولا توارُدُ المهاجرين الى ذلك الثَّغر بكثرة لا نظير لها لكان عددُ السُكَّان في تناقُصٍ لا في ازدياد

فشعرَ المسترُ بولس وزوجتُهُ أنَّ واجب العناية بينهما يحتمُ أن يكون المسكنُ مُلكاً خاصاً بهما ووجدا أن بين ايديهما فُضول مالٍ كافية لاشتراء مسكنٍ بطريقة إداء الثمن نجوماً اي

(١) دفن البنات وهن في قيد الحياة

دَفعاتٍ مُتعدِّدةً في آجالٍ مُعيَّنةٍ وهي الطريقةُ الكثيرةُ الاتِّباعِ في نيويورك فاتَّفقا رأياً على مُشترَى المنزلِ باسمِ السيدةِ لانَّ المشترى باسمِها آمنُ لحفظِها فيما إن رُفعت دعوى ماليَّةٌ على الرَّجلِ . وتباحثا في انتخابِ الموقعِ بينَ أن يكونَ في محيطٍ مُكتظٍّ[1] بالمنازلِ والسُّكَّانِ قريبٍ من مدرسةٍ قانونيةٍ وبينَ أن يكونَ منفرداً تُحيطُ بهِ حديقةٌ غنَّاءُ

فتفضيلُ السُّكنى في المُحيطِ العالميِّ قوامُهُ ما في ذلك منَ الأُنسِ وسهولةِ إرسالِ البنينَ الى المدرسة . وتفضيلُ حياةِ الانفرادِ قائمٌ بجمالِ الحياةِ الهادئةِ وجودةِ المُناخِ وانطلاقِ حُرِّيةِ البنينَ بالألعابِ التي تمنحُ الجسمَ نموًّا والفكرَ نشاطاً . والجسمُ الصحيحُ مسكنُ العقلِ الصحيح . فضلاً عن انَّ المنازلَ المجاورةَ للمدارسِ تنصرفُ الانظارُ عنها لانَّ ابناءَ الأزقَّةِ في اميركا لايخلُون من الطيشِ وادارةُ الراحةِ العموميةِ تغُضُّ العُيونَ عن مآتيهم فهم يعيثونَ فَساداً بإقلاقِ مجاوري مدارسهم إقلاقاً لا نظيرَ لهُ في مكانٍ آخرَ

وكانَ من الرَّجُلِ أنهُ خوَّلَ[2] رفيقةَ حياتهِ حقَّ الخيارِ بانتخابِ المنزلِ بدعوى أنَّ البيتَ بيتُ المرأةِ فهيَ التي تُقيمُ

(١) مملوء (٢) اعطى

فيهِ سجيناً مُختاراً ومنَ العدلِ أَن يكونَ السجينُ المختارُ حُرًّا في انتقاءِ سِجنهِ

فلمّا صرَّحَ الرجلُ برأيهِ هذا ضحكت زوجتهُ وقالت — أَيها العزيزُ إِنكَ أَلفتَ الحكومةَ والمحاكمَ فلا ترى الاَّ ذِكرَ الاحكامِ والسجونِ أَفليسَ في إِمكانِك ان تُسندَ رأْيَك الى بُرهانٍ أَلطفَ وَقعاً ام شأْنُ أَخوانِك الرجالِ أن يترنَّموا باقيودِ تَغُلُّ ساعدَ المرأَةِ وبالحُبوسِ تحصرُ خطَواتِها لما رأَوها قد خلَعت كلَّ قيدٍ وانطلقت في كلِّ ميدانٍ على أَنَّ الحقيقةَ تَظهرُ بأقلِّ تأَمُّلٍ وهيَ انَّ الحياةَ كُلَّها أَجَلٌ[1] لسَجنِ النفسِ فليسَ الرَجلُ الا شريكَ المرأَةِ في القيودِ والحبسِ وفي وَسعِكَ أَن تؤيِّدَ رأْيكَ بأَحكامِ الشرعِ في إِيراد الحقيقةِ التي أَردتَ إِدراجَها بعبارةٍ لطيفةٍ فتقول

حياتنا نحنُ البشرَ عَلَى وجهِ التَّعميمِ لله « الذي بهِ نحيا ونتحرَّكُ ونوجَدُ لاننا ذرّيتُهُ » (اع ١٧ : ١٨) وعلى وجهِ التخصيصِ يحيا الرجلُ للشَّعبِ لانهُ يتولَّى المهامَّ التي ترِدُ عنها المبادَلةُ للرِّبحِ المادي وتحيا المرأَةُ لزَوجِها وبنيها فهي مسؤُولةٌ عن راحةِ الزوجِ وسعادةِ مُستقبلِ البنينَ وما خرَجَ عن هذا فمُتجاوزُ الوضعِ

(١) زمان

الشَّرعيِّ وبناءً على هذا التقسيمِ تكونُ ولايةُ المرأةِ أخصَّ من ولايةِ الرَّجلِ . والولايةُ الخاصةُ أقوى من الولايةِ العامةِ فهي مَن يُعوَّلُ عليها لأنَّ القوةَ هي الأساسُ الراسخُ عليهِ بناءُ التصرُّف

وبما أنَّ الرأيَ لي اقولُ أنَّ سُكنى الانفرادِ أفيدُ جسماً وعقلاً لأولادِنا فنقاوةُ الهواءِ لا مُشاحَّةَ فيها واما حسنُ التربيةِ فمما لا ريبَ عندي بإمكانِ الحُصولِ عليهِ معَ الانفرادِ لانَّ الوالدةَ ترسِّخُ في عقولِ بنيها ما تُريدُ ان تغرسهُ في أعماقِ قلوبِهم وهي آمنةٌ من ان يفسدَ عليها عملَها عارضٌ خارجيٌّ هو مخالطةُ بنينَ غيرِ مهذَّبينَ يسيئونَ الى اولادِها بما يلقونهُ في مسامعِهم من العباراتِ المعوجةِ الغاياتِ التي تنمونموَّ الزوانِ بينَ القمحِ وبما يلقِّنونهم إياهُ من ضُروبِ[1] الاعمالِ الذميمةِ التي تمتدُّ امتدادَ الاشواكِ وتخنقُ بذارَ الاعمالِ الصالحةِ فاذا كانت مصلحةُ المرأةِ الخاصةُ بها تصوِّبُ[2] الإقامةَ حيثُ يتيسرُ لها مؤانسةُ الخاطرِ بأحاديثِ الجاراتِ فمصلحتُها كربةِ بيتٍ تقضي عليها بسكنى الانفراد والمرأةُ لا تكونُ امرأةً بالمفادِ الحقيقيِّ الا متى تجرَّدت عن رغائبِها النفسانيةِ للانقطاعِ الى مصلحتِها العائليَّةِ

(١) انواع (٢) تظهر صوابًا

واظهرت من الأمانةِ لزوجها وبنيها ما لا يبقى معهُ زيادةٌ لمستزيدٍ كما أنَّ الرجلَ لا يكونُ رجلاً بكلِّ معنى الكلمةِ الاَّ متى كانَ عونَ المرأةِ الأقوى في تحقيقِ رغائبها الصالحةِ في خدمةِ العائلة

انا لا أُنكرُ أنَّ سكنى الانفرادِ تجعلُ ذهابَ ابنائنا الى المدرسةِ العموميةِ امراً غيرَ ميسورٍ وأنَّ حالتنا الماديةَ لا تُجيزُ لنا ان نُقيمَ لهم مدرسةً خصوصيةً . ولكن ما هيَ واجباتُ الأُمِّ ياترى؟ أليست الأُمُّ هي المعلمةَ الفضلى التي تعرفُ حاجاتِ بنيها المعرفةَ التامَّةَ . فان كانت تعجزُ عن القبضِ على ازمةِ اميالهم وتحويلها الى المطالبِ الشريفةِ فما هي وزناتُها التي وضعها اللهُ بينَ يديها لتتَّجرَ بها ؟ ان الأُمَّ في رأيي هي اعرفُ الناسِ باساليبِ تثقيفِ بنيها واقدرُهم على بذلِ العنايةِ عليهم واشدُّهم مسؤوليةً عن اخلاقِهم وآدابِهم فاذا تصرَّفت بموهبتها تصرُّفاً حكيماً رأيتهم غصونَ كرمةٍ مثمرةٍ على ينبوعِ السعادةِ فتقتطفُ منها قبلَ سواها قطوفَ راحةِ الضميرِ وانشراحِ الصدرِ والثقةِ بالمستقبلِ المُنيرِ

ولستُ أبني هذا الرأيَ على تصوُّراتِ المُخيِّلةِ وأوهامِ الشعراءِ بل أبنيهِ على التجربةِ التي وردَ المثلُ بها . والأمثالُ

مَصابيحُ الحُكماء التي تُنيرُ لهم سُبلَ التصرُّفِ فقد قالَ الحكيمُ والمَلِكُ « السُّكنى في زاويةِ السَّطحِ خيرٌ من امرأةٍ مُخاصِمةٍ وبيتٍ مُشترَكٍ » (ام ٢١: ٩) فانَّ في طيِّ قولهِ هذا تفضيلاً لِلانفرادِ لا سيَّما انَّ الأيامَ شريرة (اف ٥: ١٦) وقالَ حكيمٌ ما معناهُ

كُنْ قادِرًا ان تعيشَ مُنفرِدا ... ولا تُجاوِرْ منَ الورى أَحَدا
كُنْ مِثلَ سيفٍ طابتْ مضاربُهُ ... والسَّيفُ أزهى نُورًا اذا جرِدا
فكمْ ذِئابٍ حشًا تخالُهمُ ... قبلَ اختلاطٍ بجمعِهمْ نَقَدا[1]
فاقتربوا كالنِعاجِ في دَعةٍ ... وبطشوا حينَ قُدْرةٍ أُسُدا
فلا يَشُقْكَ الورى وأُنسُهمُ ... مَن شاقَهُ قُربُهم قضى كَمَدا
وإنَّ في الوِحدةِ السلامةَ من ... تغريرِ آمالِنا وكيدِ عِدى

وبعدَ هذا القولِ الصُّراحِ لم يكُنْ للمسترِ بولسَ الاَّ تأييدُ رأيِ زوجتهِ فانتقيا ذاكَ المنزلَ الذي كانَ بعيداً عن مقرِّ عَمَلِهِ القائمِ في مُنتصفِ المدينةِ فلم يكن لهُ أَن يتمتَّعَ بمُشاهدةِ بنيهِ وقتاً متَّسعاً الاَّ في أيَّامِ الآحادِ فيسمعَ من افواهِهم كلماتٍ تتساقطُ على أُذُنيهِ تساقُطَ الندى على الكلإِ[2] الأخضرِ ويختزنُها فؤادُهُ اختزانَ الصَّدَفِ للدُرر

(١) نوع من الغنم (٢) الحشيش

الفصل الثاني

وجود الله

كيفية نقل اثاث البيوت في نيويورك · مدارس الكبار مجانية ومدارس الصغار بالاجرة · طعام المساء الاعتيادي عند الاميركيين · شيء من زينة المنازل الاميركية · مناقشة · اعتراض على وجود الله · نقض هذا الاعتراض · تشبيه لطيف

« علينا ان نُسلّم أن وُجودَ العالم عملٌ له عامل هو الله »

إن رأينا نحيتَ صخرٍ حكمنا ... عن يقينٍ بأنهُ صُنعُ عاقِلْ
ونرى الكائناتِ طُرًّا لها كلُّ نظامٍ يغدو بهِ العقلُ ذاهلْ
فعلينا التسليمُ حتمًا بأنَّ الـ ... ـكونَ لامرِيءٍ صنيعةُ عامِلْ
وهوَ اللهُ مَن سيقضي علينا ... عرشهُ العدلُ يومَ حشرِ القبائلْ
ربِّ هَبْني في ذلكَ اليومِ عفواً ... فينالَ الفؤادُ ما هوَ آملْ
واسقني من رضاكَ إنعاشَ روحي ... فرضاكَ الكريمُ أشهى سلاسلْ[1]
لستُ إلّا بفيضِ عفوكَ أنجو ... من قيودِ الذنوبِ ذاتِ السلاسلْ[2]

(١) الماء (٢) جمع سلسلة

فَرَدةً إِثرَ فَرَدةٍ صَفَّدتني وتَعالت فوقي نظيرَ السَّلاسِلْ[١]
ورَوَت لي قَبيحَ ما خطَّ كفّي في كِتابِ الإِثْمِ الجزيلِ السلاسلْ[٢]
وَيحَ من يُنكِرُ المهيمنَ[٣] ذاكَ اليومَ من شدَّةِ العِقابِ العادِلْ

دخلَ ذاكَ المَنزِلُ في مُلكِ المستر بولس بعد ما ذهبت زوجتُهُ وتفقَّدتهُ غُرْفةً غرفةً ونظرت ما احاطَ بهِ من جِهاتِهِ الأربعِ ووقفت على مِقدارِ الضرائبِ[٤] الرسميةِ السنويَّةِ الموضوعةِ عليهِ من قِبَلِ الحكومةِ للماء وللمجلسِ البلديّ ونظرتْ ايضاً في شروطِ تقسيطِ ثمنِهِ للشَّركةِ التي ابتنتهُ فرأَت الكلَّ على وَجهٍ مُناسبٍ لمَصلحتِها ومصلحةِ زوجِها

ولما ارادتِ الانتقالَ اليهِ جاءَ زوجُها بعَربةٍ كبيرةٍ اشبهَ ببيتٍ خشبيٍّ ووضعت ضمنَها كلَّ ما يحتويهِ منزلُها الأَوَّلُ دفعةً واحدة ولما انتهت تلكَ العربة المَسوقةُ بقوةٍ كهربائيةٍ الى البيتِ الجديدِ قامَ خادِما العربةِ بوَضعِ معدَّاتِ المنزلِ في محالِّها حسبما ارتأى صاحبا البيتِ. فلمَّا أَقبلَ المساءُ انْصرفَ الأَولادُ الكبار من المدرسةِ العموميَّةِ المُفتَتحةِ الأَبوابِ من قِبَلِ المجلسِ البلديِّ مجَّاناً. وقدِمَ الاولادُ الصغارُ منَ المدرسةِ الخصوصيَّةِ

(١) رملٌ يتعقد. وصفدتني قيدتني (٢) السطور (٣) الله
(٤) المال المعين من قبل الحكومة على الرعية

التي كانت احدى الأَوانسِ قد أَنشأَتها للصغارِ من صبيانِ وبناتِ الحيِّ فيقضونَ نهارَهم فيها يرنّمون ويلعبونَ وعلى كلِّ ولدٍ في هذهِ المدرسةِ مرتّبٌ قدرُهُ أَربعةُ ريالاتٍ في الشّهرِ

فلما قدِمَ الاولادُ وجدُوا والديهِم بانتظارِهم فودّعوا المنزلَ وقد شعَروا بانقباضٍ لأَنّهُ بعدَ خلُوِّهِ من الرياشِ ذهبت محاسنُهُ وبدَتْ خفاياهُ فبان

شبيهَ جسمٍ بغيرِ رُوحٍ والجسمُ لا روحَ فيهِ جيفه
تنبِذُهُ العينُ إِذ قلَتهُ نسمةَ الخالقِ اللطيفه

على ان الأَملَ كانَ يهبُّ نسيماً على قلوبهم فينعشُها لأَنّ والديهم اعلَمَهم انّ المنزلَ الجديدَ اكثرُ مناسبةً لهم وأَنّهُ ملكُهم القانونيّ. فلما اشرفوا عليهِ كادَ السرورُ يحوّلهم الى اطيارٍ لما كانوا يُظهِرونَ من الخفّةِ ويلهجونَ بهِ من عباراتِ الابتهاج

فدخلوا اليهِ وأَخذوا يتجوّلونَ في غُرَفِهِ فشاهدوا كلَّ شيءٍ منتظماً كما أَلِفوا مشاهدةَ الانتظامِ في المنزلِ القديمِ ثمّ ذهبوا الى غُرفةِ المائدةِ فتناولوا طعامَ المساءِ على المُعتادِ وهوَ مؤلّفٌ من قطعةِ خبزٍ عليها شيءٌ من الزُّبدةِ الاميركيّةِ ومن كأسِ شايٍ فيها قليلٌ من الحليبِ

وما لبثوا بعدَ العشاءِ أَن استَوَوا حولَ والديهم في غُرفةِ

الجلوس المُعدَّةِ للعائلةِ كأنَّهم نجومٌ قد لَمَعت في أُفقٍ أضاءَ بهِ قَمَرانِ وكلٌّ منهم باسمُ الثَّغرِ . وكانَ في وسطِ الغُرفةِ طاولةٌ (منضدة) عليها قِطعةٌ من نسيجِ الصنَّارةِ وفوقَها إناءٌ بلُّوريٌّ بديعُ الرسومِ فيهِ شيءٌ منَ الماءِ وبعضُ ازهارٍ جميلةُ المنظرِ فائحةُ الرائحةِ العطرية

وراقَ للفتاةِ الثالثةِ حنَّةَ ان تَتناولَ بعضَ تلكَ الازهارِ فقالت لها أُختُها الكُبرى : إيَّاكِ وان تَلمسيها فانَّ والدتَنا لم تضعْ هذهِ الازهارَ هُنا عن عَبثٍ

فقالت حنَّة — ماذا أدراكِ أنَّ والدتَنا هي التي وضعتْها هُنا أَلعلَّكِ جئتِ قَبلَنا ورأيتِها تَضعُها لغايةٍ ما

فاجابت ثقلا — يا عزيزتي العلَّكِ تظُنّين انَّها تُوجدُ هنا بغيرِ موجدٍ وهل يتمُّ امرٌ في المنزلِ الاَّ باطّلاعِ والدتِنا . وهل تضعُ والدتُنا شيئاً في المنزلِ بدونِ أن يكونَ لها في وضعهِ مقصد

واقتنعتْ حنةُ بكلمةِ شقيقتِها فصمتت . وكانت اليصاباتُ تَسمعُ المُحاوَرَةَ فلمَّا انتهتْ التفتت الى ثقلا وقالت : أحسنتِ يا حبيبتي فاحفظي كلماتك هذهِ فانها جوابٌ لسوءِ الكِ لي أمسِ وقد قلتُ لكِ حينئذٍ أنَّكِ ستهتدينَ من نفسكِ الى الجوابِ

يا ابنتي — سألتِ كيف نقولُ أنَّ اللهَ موجودٌ ونحنُ لا نراهُ وهل يجبُ عليَّ أن أُسلِّمَ بشيءٍ لا اشعرُ بهِ ولم أَقِفْ عليهِ معَ أنني مالكةٌ قيادَ نفسي وقادرةٌ أن أَصرِفَ فِطنتي الى إدراكِ الموجود

أُنظري يا ابنتي كيف سلَّمتِ أنَّني وضعتُ الأَزهارَ في الإِناء مع انكِ لم تَرَيني أَفعلُ ذلك ولم تكتفي بذلكَ بل أَوجبتِ على شقيقتكِ ان تُسلِّمَ بذلكَ مع أنَّها مثلُكِ مالكةٌ قيادَ نفسِها ولم تشعرْ بعملي ولا وَقفت على عملي إِيَّاهُ الاَّ منكِ وما كانَ كلُّ ذلكَ الاَّ لتسليمكِ القلبيِّ بأنَّ — كلَّ عملٍ لهُ عاملٌ . وكلَّ عاملٍ يُجري عملَهُ عن غايةٍ . والغايةُ تكونُ حكيمةً بقدرِ حكمةِ عقلِ العامل

اذن علينا ان نسلِّمَ ان وجودَ العالَمِ عَمَلٌ لهُ عاملٌ هو الله . وقد أَوجدَ اللهُ العالَمَ لغايةٍ حكيمةٍ بقدرِ حكمتهِ الفائقةِ الإِدراكِ والوَصف . وعلى هذا البناءِ يجبُ أَن نسلِّمَ بوجودِ اللهِ وإِنْ لم يَقَعْ سُبْحانهُ وتعالى تحتَ شعورِنا الحِسِّيِّ لأَنَّ التسليمَ بوقوعِ عَمَلِ العاملِ تسليمٌ بوجودِ العامل

فتلقَّى الاولادُ هذا الدرسَ الفلسفيَّ الموضوعِ السهلَ الإِدراكِ بمُنتهى الجَذَلِ وبعدئذٍ وقفوا للصلاةِ شاكرينَ نِعمةَ

اللهِ التي منحتهم مسكناً جميلاً ورأوا على وجهِ الشبهِ أنَّ منزلهم يُشابهُ ذاكَ الإناءَ البديعَ وهمُ فيهِ اشبهُ بالازهارِ وانَّ شكرَ مراحمِ اللهِ هو كالمياهِ التي تقي الأزهارَ منَ الذُّبول وأنَّ الرائحةَ العطريةَ الفوّاحة من الازهارِ هيَ ما يجبُ أن يكونَ لهم من السيرةِ النقيَّةِ فيكونَ لهم من حُسنِ المَنظرِ وطيبِ المخبرِ ما للأزهارِ من الحُسنِ الخارجيِّ الذي ترمقُهُ العيونُ بالإعجابِ والجمالِ الداخليِّ الفائحِ بالأطياب فتنعطفُ اليهم العيونُ سروراً وتمتلئ بهم القلوبُ حبوراً

الفصل الثالث

سن الطفولية

الوقت اثمن شيء · اهتمام السيدة الاميركية بابنائها صباحاً · طعام الصباح · جمال النور وتأثيرهُ مع القلوب والعيون · طريقة اليصابات في بث نصائحها · مشابهة بين الاباء والاشجار والابناء والأنوار (جمع نوْر) · مصدر مكارم الاخلاق · مبادئ الأُمّ وتأثيرها · مَن هو الولد المبارك

« الحياة التي اريدها، واريد ان تعرفوها، هي خشية الله التي ترد عنها مكارمُ الاخلاق »

مَن يتَّخِذْ هادِيْ البصيرةِ قائداً ظَفِرت يداهُ بأنفسِ الأعلاقِ

ورأى دقائقَ ذي الحياةِ جواهراً منهنَّ تلمعُ حكمةُ الخلاّقِ
تلكَ الحياةُ ولستُ أعني غيرَها هوَ ما دعوهُ مكارمَ الأخلاقِ
فاجهدْ لتكسبَ كلَّ مكرُمةٍ سمتْ كسموِّ بدرِ التمِّ في الآفاقِ
والبسْ وشاحَ تواضعٍ ووداعةٍ كتوشُّحِ الأغصانِ بالأوراقِ
وتخيَّرِ الرأيَ الحصيفَ فكلُّ منْ يختارُهُ يحتلُّ رَوضَ وِفاقِ
وتنقَّ مثلَ النحلِ لفظاً قد حوى معنىً نظيرَ الشهدِ حلوَ مذاقِ
واذا سمعتَ نصيحتي وتبعتَها بأمانةٍ لا شكَّ نجحكَ راقِ

كانت اليصاباتُ تقول ان الوقتَ اثمنُ شيءٍ أُعطيَ للانسانِ وقد جرَت على هذا المبدإِ منذُ حداثتِها فرسخَ فيها ووجدتْ بهِ خيراً ولذلك كانت على بصيرةٍ في ما يجبُ ان تُجريهُ لتُعيضَ على اولادِها الخسارةَ التي تلحقُ بهم من تعذُّرِ الذَّهابِ عليهم الى المدرسةِ القانونيةِ فلمَّا رفعَ المنبِّهُ الوقتيُّ صوتَهُ العالي للنهوضِ من النومِ قامت تلكَ السيدةُ من سريرِها واخذت تُلبسُ اولادَها ثياباً متَّسعةً لكي تذهبَ بهم الى غُرفةِ الحمَّامِ المنزليِّ. وكانَ زوجُها قد سبقَ على عادتِهِ فاغتسلَ وأعدَّ امواهاً جديدة ليغتسلَ الأبناءُ فتعاوَنا على غسلِ الصغارِ منهم بالماءِ الباردِ ثمَّ فركا أبدانَهم بمناشفَ ذاتِ ملمسٍ فيهِ شيءٌ من الخشونةِ وبعدئذٍ اغتسلَ الاولادُ الكبارُ واخيراً والدتُهم

فالخادمةُ ثمَّ لبسَ الاولادُ ثيابَهم وخرَجَ بهم الوالدان الى الحديقةِ للتنزّهِ بينما كانتِ الخادمةُ تُعِدُّ طعامَ الصباحِ المؤلَّفَ من موادَّ بسيطةٍ تكثُرُ البقولُ فيها ومنَ الشايِ والحليب

فطافَ الاولادُ بالحديقةِ مبتسمينَ ووجَدوا انها غايةٌ في الإتقانِ ففيها انواعٌ عديدةٌ من الشجرِ بعضها شهيُّ الثمرِ وبعضُها بغيرِ ثمرٍ يُجتنى وقد أُقيمَ في جوانبها دوائرُ حوتْ انواعاً عديدةً من الازاهيرِ والاعشابِ وشاهدوا أحواضاً (١) متفرقةً حوَتِ الرياحينَ الطيبةَ الرائحةِ كالوردِ والقرَنفلِ والنَفَلِ والبنفسجِ . وفي وسطِ الحديقةِ حوضٌ كبيرٌ للماءِ تتوسَّطُ فيهِ انبوبةٌ يتدفَّقُ منها الماءُ المتجمِّعُ اندفاقاً صاعداً كأنهُ رمحٌ اذا أَلقت عليهِ الشمسُ نورَها أكسبهُ ذلكَ رونقاً باهراً فيعلو نحوَ ذراعينِ ثم يَنحدِرُ متقسِّماً فيسيلُ على جوانبِ الأُنبوبةِ كأنهُ ذيلُ ثوبٍ سابغٍ (٢) لفتاةٍ بديعةِ القوام

كلُّ هذهِ المناظرِ الشائقةِ بدَتْ لهم فأطربتهم ولكنَّ المنظرَ الذي حلَّ المكانةَ العُليا في مجامعِ قلوبهم وصرَفَ أعينَهم الى الالتفاتِ اليهِ بدونِ أن يعرِضَ عليهم سأمٌ هوَ منظرُ النورِ

(١) جمع حوض وهو الإناء الذي يزرَع الريحان فيهِ وسمّاهُ بعضهم اصيصاً وفي هذه التسمية نظر (٢) طائل الى الارض

الجميلِ في أوَّلِ بروزهِ وقد عمَّ الأشجارَ فألبسَها حُلَلاً بيضاءَ لا تكتفي العينُ من مشاهدتهِ ويكادُ القلبُ يكونُ طائراً يترنَّمُ عليهِ بأغاريدِ السرورِ فوقفَ الوالدانِ والاولادُ يُجيلونَ بواصرَهم في تلكَ المناظرِ وهُمْ كالذين باتوا بقلوبٍ قيَّدتها المحاسنُ الطبيعيةُ بقيودِ الاستحسان

وكانت اليصاباتُ تغتنمُ تلكَ النَّزَاتِ المحبوبةَ اذ تكونُ الخواطرُ صافيةً فتنقشُ على ألواحِ القلوبِ كلماتِ الحياةِ التي تنتقشُ بإزميلِ الحكمةِ لا بإزميلِ النَّحاتِ فتكونَ للبنين شريعةً لا يتعدَّونها الاَّ عن ذُهولٍ فاذا ذكَّرهم بها والدُهم او والدتهم شعروا بالغفلةِ وارعَوَوا عن جهلِهم

ففي ذاكَ الموقفِ الذي لطُفت بهِ عواطفُهم وانجلت ألواحُ قلوبِهم ارادتِ الوالدةُ أن تُلقي عليهم درساً جديداً وما امهرَها باختيارِ الدُروسِ وإقناعِ بنيها بكريمِ عائدتها فقالت لِابنِها الأكبرِ — أرأيتَ يا ولدي داودَ هذا النَّور . ما أجملهُ . فهل تعرفُ ما هُو

فاجاب — هو حِلْيَةُ الأشجار

فقالت الأُمُّ — أحسنتَ يا ولدي فهل تعلَمُ بماذا يحيا

فأجاب — يحيا بالمادَّةِ المائيَّةِ التي ترِدُ اليهِ من الشجرةِ

وسمعَ بقيةُ الأولادِ والدتهم تحادثُ شقيقهم الاكبرَ على وجهِ اختبارِ مقدرتهِ العلميةِ فوجهوا آذانهم الى حديثهما لكي يعوه[1] وكان ذلك ما تريدهُ الوالدةُ فاخذت شفتاها تفيضان الكلمةَ الآتية

يا أولادي — انَّ هذا النورَ هوَ مولودُ الاشجارِ وحليتها فهوَ يبيّنُ لنا جلياً انَّ البنينَ هم حليةُ الوالدَينِ وكما ان الحليةَ لا تصدُقُ عليها التسميةُ بحليةٍ الاَّ اذا كانت منتقاةً شريفةً كذلكَ يجبُ ان يكونَ الأبناءُ شرفاءَ

انَّ مادَّةَ الحياةِ ترِدُ الى الزَّهرِ بواسطةِ الشجرةِ فعلى هذا المثالِ تكونُ الاولادُ مستمدّينَ مادَّةَ الحياةِ من الوالدَينِ . وعلى أغصانِ الشجرةِ يستقرُّ النورُ وكذلكَ على أحضانِ الأبوينِ يستقرُّ البنونَ

يرضعُ البنونَ من الأمَّهاتِ ما يقوتهم جسداً فينمونَ ويصيرونَ ذوي مكانةٍ مكرَّمةٍ كما ينمو الزهرُ ويصيرُ ثمراً وعلى المثالِ عينهِ يكتسبُ البنونَ الحياةَ الروحيةَ من الوالدين . والحياةُ التي أُريدُها وأُريدُ أن تعرِفوها هي خشيةُ اللهِ التي ترِدُ عنها مكارمُ الأخلاق

(١) يتدبروهُ

أُنظروا يا اولادي انَّ النورَ جميلٌ ولطيفٌ ورقيقُ المادَّةِ وكذٰلك الولدُ الصغيرُ فانهُ جميلُ الطَّلعةِ ولطيفُ الخُلْق ورقيقُ البَيان عن نيَّاتهِ . والنورُ يَحوي في قلبهِ مادَّةً هيَ التي تَنمو وتصيرُ ثمرهً فاذا كانَ ما يحويهِ كريماً كانَ للنورِ كرامةً والاَّ فلا . كذٰلكَ في قلبِ كلٍّ منكُمْ روحٌ فيجبُ أَن تكونَ كريمةً لتنالوا الكرامة . وكما انَّ الثمرةَ هي كلُّ ما يُرجَى من النورِ فكذٰلكَ تلكَ الروحُ الكريمةُ هي ما يُرجَى من كلِّ واحدٍ منكم

فاعلموا يا اولادي ان تلكَ المادَّةَ المكنونةَ في قلبِ النورِ والآتيةَ من حيَويَّةِ الشجرةِ هيَ التي تَضعُها الأُمُّ في قلوبِ بنيها

والنورُ الذي يُكلِّلُهُ نَدى السماواتِ كإكليلٍ من اللؤلؤِ النقيِّ النفيسِ هوَ الذي تجودُ ثمرتُهُ وكذٰلكَ الولدُ الذي تبارِكُهُ رحمةُ اللهِ هوَ الذي يَتلقَّى من والدَيهِ إرشادَهما كإكليلٍ يتوِّجُ رأسَهُ ويَحفَظُ روحَهُ على طهارتِها

فتمتَّعوا يا أَولادي الاحبَّاءَ بما أُوصيكمُ بهِ وأَحيُوهُ في قلوبكم لتكونوا مُباركي ابيكُمُ السماويِّ القدُّوس

إغرِسوا كلمةَ النصيحةِ في القلم بِنظيرَ الغِراسِ في الرَّوضاتِ

واجعلوا تُربَها اقتناعَ ضميرٍ انَّ منها النجاحَ في الرَّغباتِ
واُذكُروها فذِكرُها باهتمامٍ مثلُ غَيثٍ (١) يُروي عروقَ النَّباتِ
واُعلَموا أنَّكم بذٰلكَ تجنونَ ولا مريـةٌ ثمارَ الحَياةِ
وتنالونَ من هِباتِ إلٰهِ العـرشِ دوماً جلائلَ البرَكاتِ
ثم ما لبثت هي وزوجُها وبنوها ان خرُّوا سجوداً لتأديةِ واجبِ الصلاة

الفصل الرابع

سنُّ الفتوَّة

المدرسة البيتية . تعليم الاولاد هو عملٌ نسائي في سنّةِ الولايات المتحـدة . رمزٌ لطيف لربَّةِ البيتِ الحكيمة . توزيع الوالدة اوقاتها على الاعمال . وصف آلة لتقليم الاعشابِ . تشبيه العشب بأخلاق الاولاد . واجبات الاباء في تهذيب اخلاق الابناء . تعادل القوى العاملة مجلبة صلاحها وتخالفها مجلبة الطلاح . بيان ما هو الكرم . بيان ما هو التواضع . كيف ننقل قوانا حتى يتحول الطالح صالحاً

« من الواجب انْ لا نطرح القوّة الكامنة في الاخلاق ، بل علينا ان ننقلها من جهةٍ الى جهةٍ . فتتحوَّل الرذيلة الى فضيلة »

قُوَى النفسِ تنمو باجمعِها فمنها كريمٌ ومنها ذميمْ

(١) مطرٍ

فلا تقلمنَّ نموًّا لها فتضعفَ ذاكَ البناءَ الحكيمْ
وحوّل قوى النفس من مبدإٍ الى مبدإٍ فالمُنى تستقيمْ
فما كانَ منصرفًا للذميـ ـمِ يصبحُ منصرفًا للكريمْ
وذلكَ يكسبُ في ذا الوُجودِ حياةَ السُّعودِ ومجداً عظيمْ
ويمنحُ يومَ النُّشورِ ابتهاجًا بنُعمى الكريمِ وسُكنى النَّعيمْ
فلا تهملَنَّ الحُصولَ على ما يودُّ الحُصولُ عليهِ الفهيمْ

إنصرفَ الوالدُ الى عملِهِ بعدَ تناوُلِ الطَّعامِ فاوعزتِ الأُمُّ الى بنيها ان يقعُدوا في غُرفةٍ مُعيَّنةٍ لكي يقوموا بفروضهم المدرسيَّةِ واخبرتهم أنها ستدرّسهم هي نفسها الدروسَ التي أعطتهم اياها المعلّمات

قُلنا المعلّماتِ ولم نقُلِ المعلّمينَ لانَّ الولدَ الاكبرَ وهو داودُ في الربيعِ الثاني عشرَ من عُمرِهِ والمعلّماتُ يُدرّسنَ في مدارسِ الولايات المتحدةِ الشماليَّةِ اولاداً يُنيفونَ على هذا السنّ

ولا يخفى ان النوعَ اللطيفَ اقدرُ من اخيهِ النشيطِ على ترصيعِ قلائدِ الفِكرِ بجواهرِ التعاليمِ الادبيةِ وتجويدِ الأَميالِ الى ما يُرضي اللهَ والناسَ وإذكاءِ نورِ الديانةِ النقيِّ في أَعماقِ القلوبِ

وكانتِ السيدةُ اليصاباتُ قدِ اختارتْ قبلَ الدُّخولِ في

عالَمِ الزواجِ وبالتالي قبلَ الخروجِ من العالَمِ العموميّ (الذي هو العمل المُطلَق) الى العالَمِ الخصوصيّ (وهو الانقطاعُ الى تدبيرِ البيت) ان تتمرَّنَ على القيامِ بمهمّةِ الأُمّ الطبيعيةِ أي تربيةِ البنينَ فانتظمت في عِدادِ المعلّماتِ. فأظهرت عنايةً بالغةً ولذلك لما تأهّلت بالمستر بولس أهدتها المدرسةُ أثرًا تذكاريًّا يُمثّل رُبّانًا حكيمًا يُديرُ سفينةً صغيرةً في بحرٍ مضطربٍ وهوَ باسمُ الثغرِ رابطُ الجأشِ ومن شفتيِ الرُّبّانِ تتصاعدُ أنفاسٌ كنسيمٍ لطيفٍ يتجمّعُ فوقَ الرأسِ كنقُطاتِ ندى ويتألّفُ منها كلماتٌ هي آيةُ يشوعَ ابنَ نُونَ «اما انا وبيتي فنعبدُ الربّ» (٢٤:٣١)

وكانَ كلُّ ذلكَ رمزًا الى حكمتِها في إدارةِ سفينةِ المنزلِ التي أُلقيَت على عاتقِها متاعبها بصفةِ كونِها الرُّبّان فإنّها مسؤولة فيها اولاً عن تربيةِ بنيها ونجاتِهم من بحرِ متاعبِ الحياةِ المضطربِ بامواجِ الشرورِ الهائلةِ الواردةِ عن بواعثِ الاغترارِ بزخارفِ الدنيا وابا طيلِها وثانيًا عن تفهيمِ كلِّ واحدٍ من بنيها واجباتِه في المجتمعِ الانسانيّ ليكونَ عضوًا في الهيئةِ الاجتماعيةِ عاملاً في سفينةِ هذهِ الحياةِ الزائلةِ ليصلَ الى مرفإِ السعادةِ في دارِ البقاءِ الابديّ معافًى مستأهلاً[1] لثوابِ الكرامةِ هذا ما يُطلَبُ منها لبنيها وأمّا

(١) مستوجبًا

واجباتُها لزوجها فهيَ أَنْ تكونَ مهتمَّةً بشؤُونهِ بغيرِ انقطاعٍ وباذلةً نفسَها في سبيلِ إسعادِهِ كما يَبذُلُ الرُّبَّانُ نفسهُ في سبيلِ إنقاذِ سفينتِهِ · وللثِّقةِ باقتدارِ اليصاباتَ على القيامِ بواجباتِها مثّلت ذٰلكَ التمثيلَ الجميلَ وهيَ تنطقُ بآياتِ الاعتصامِ القويِّ باللهِ والتوثُّقِ بشريعتِهِ على رَغمِ محاربةِ التجاربِ الشرّيرة

وكان اولادُها يَعلمونَ أَنَّ والدتَهم قد استقرَّتْ على كُرسيِّ التعليمِ فلذٰلكَ لم يكنْ من عجَبٍ عندَهم بانها ستعلّمهم لأَنهم أَلِفوا أَخذَ الدروسِ عنها في الفُرَصِ المدرسيَّةِ ولطالما سأَلوها إعادةَ شرحِ الدروسِ الّتي تلَقَّوها في المدرسةِ لسهولةِ مأْخَذِها

فلما انصرفوا الى الغُرفةِ التي اختارتْها لتدريسِهم أَكَبَّ الأَربعةُ الكبارُ داودُ وتقلا وكاترينُ ويوسفُ على الدرسِ والكتابةِ وأَما الثلاثةُ الصغارصموئيلُ وحنةُ وفيكتوريا فخرجوا الى الحديقةِ ثانيةً

وقضتِ الوالدةُ ساعتينِ في إعدادِ واجباتِ المنزلِ ومُشارَفةِ الخادمةِ ومُعاضَدتِها في العملِ وعقيبَ ذلكَ ذهبت الى غُرفةِ الدرسِ وبدأَت تقومُ بعملِ التدريسِ القانونيِّ

حتى أعلنَ الظهرُ بالقدومِ فأعطت بنيها إجازةً[1] بالراحةِ وأكملت بعدَ الغذاء بقيةَ الدروسِ ثم ذهبت ببنيها الى الحديقةِ للقيامِ هنالكَ بوظيفةِ البُستانيِّ التي كانت تُجريها أثناءَ إقامتِها في المنزلِ السابقِ لما بها رياضةً بدنيةً تُكسبُها النشاطَ الجسديَّ والابتهاجَ العقلي . وكانَ اولادُها يقتدونَ بها في اعمالها جميعاً

هنالكَ وجدَت أعشاباً تبسَّطتْ في قطعةٍ صغيرةٍ أشبهَ بحصيرٍ وقد تخالفَتْ نموًّا فجاءت اليضاباتُ بمحدلةٍ صغيرةٍ ذاتِ مَسامَّ قد اتصلَ بطرفيها قضيبانِ حديديانِ متساويانِ طولاً وفي رأسيهما مقبضانِ لليدينِ وقد وصلَ بينهما قضيبٌ ثالثٌ . فشرعَت تديرُ تلكَ المحدلةَ على العُشبِ الأخضرِ الممتدِّ فتساقطَ ما علا منهُ واستوى ارتفاعاً الاَّ قليلاً أفلتَ من أسنانِ المحدلةِ فأتت بمقصٍّ خاصٍّ بالأعشابِ قلَّمتهُ بهِ وأبقتِ القُلامةَ كلَّها على العُشبِ ثمَّ قالتَ لابنتِها كاترين — ماذا ترينني أصنعُ يا أُبنتي

فاجابت — تُساوينَ بين الاعشابِ طولاً

فقالت — ولماذا أُبقي القُصاصة[2] ولا أنفيها

---

(١) اي فرصة (٢) ما سقط من المقصوص

فاجابت — لا أعلَمُ ولٰكنّني لا أَشكُّ بأنَّهُ عملٌ جيّد

فضحكت الامُّ وقالت لبنيها وكانوا قد أَحاطوا بها ليسمعوا ما تحدّثُ بهِ شقيقتهم — يا اولادي : انَّ العُشبَ في نُموّهِ اشبهُ بأَخلاقِ الاولادِ وهم ينمونَ ليكونوا في مُستقبلِ الحياةِ جمالَ الوجودِ الكونيّ بل حياةَ الكونِ البشريّ وهذهِ الاخلاقُ تُعطَى منحةَ النُموّ بحسبِ استعدادِ كلّ شخصٍ فيكونُ نموُّها على اختلافٍ حتى يقعُ التباينُ بينَها وبالتالي يَغلِبُ ما ليس بصالحٍ عَلَى الصالحِ لأنَّ الميلَ الى الشرّ اقوى تصوُّراً من الميلِ الى الخيرِ وعَلَى ذٰلكَ يُقالُ ان الأَميالَ الشرّيرةَ هي التي تنمو بنوعٍ خُصوصيٍّ حتى تقتُلُ الأَميالَ الشريفةَ او تُزيلُ منها قُوَّتها وتحرِمُ الانسانَ جمالَ خُلُقِهِ على سُنَّةِ تَغلُّبِ القويِّ على الضعيف

فعلَى الوالدَينِ اللَّذَينِ هما بُستانيَّا أَخلاقِ اولادِهما أَن لا يَدَعا ذاكَ التغلُّبَ ينمو وليُبادرا الى قَلْمِ ما رأَياهُ قد أَخلَّ بنظامهِ حتى تتساوى الاميالُ فان رأَيا أَنَّ التهذيبَ بصورةٍ عامَّةٍ لم يأتِ بغايةِ المطلوبةِ كلّها كان من الواجبِ معالجةُ السجيَّةِ الخصوصيَّةِ حتى تستويَ الاخلاقُ دماثةً[1] ونقاوةً

(١) سهولة الاخلاق

فالعواطفُ متى تماثلَتْ قوّةً كانت كلُّها صالحةً وأضربُ لكم مَثَلاً بمحبةِ العَملِ ومحبةِ الراحةِ فانّهما سجيّتانِ متعاكستانِ ولٰكنّ تساويهما قوّةً هو فضيلةٌ لأنّ الحياةَ انما وُجدت للعملِ. والراحةُ الحقيقةُ انّما هي باعثُ تجدُّدِ القوّةِ للعملِ فمآلُ الثانيةِ اي الراحةِ والحالةُ هٰذهِ انما هو لتقويةِ الأُولى اي الحياة. ولكن متى تغلّبتِ العاطفةُ الأُولى على الثانيةِ تغلُّباً عظيماً تحوّلتْ الى شرٍّ وذٰلكَ لأنّ الإكبابَ على العملِ الى حدٍّ يستنفدُ[1] القوى الطبيعيةَ داعٍ الى استقدامِ العِلَلِ وتقصيرِ مسافةِ الأجلِ فهو نوعٌ من قتلِ النفسِ والقتلُ محرّمٌ نهتْ عنهُ الشريعةُ فيكونُ إجهادُ النفسِ في العملِ محرّماً وكلُّ محرّمٍ هو شرٌّ. ولذلكَ يعلّمنا داودُ النبيُّ والملكُ وجوبَ الاعتدالِ في العملِ قائلاً «يخرجُ الانسانُ الى عملِهِ والى صناعتِهِ حتى المساءِ ما أعظمَ أعمالَكَ يا ربِّ كلَّها بحكمةٍ صنعتَ» (مز ١٠٤: ٢٤) وهٰكذا يُقال في تغلُّبِ العاطفةِ الثانيةِ اي محبّةِ الراحةِ فانّ الإخلادَ الى الراحةِ وإضاعةَ الوقتِ بدونِ القيامِ بالعملِ مما يُنافي[2] حكمةَ الوجودِ ولله درُّ القائلِ ما معناهُ

---

(١) يُفني (٢) يُباين اي ليس مناسباً

اذا مرَّ بي يومٌ ولم أَتَّخِذْ يداً ولم اكتسبْ علماً فماذاكَ من عمري

فمِن هذا يجبُ ان نستنتجَ ان كلَّ فضيلةٍ هي وَسَطٌ بينَ رذيلتين فاذا وقعَ التماثُلُ قوَّةً بينَ عاطفتَينِ متعاكستَينِ ثبتَ البِرُّ وانتفى الشرُّ فالكرَمُ مثلاً تقليمُ الإسْرافِ (١) ووَضعُ قُلامتِهِ على البُخْلِ . والتواضُعُ تقليمُ الكِبرياءِ حتى تتعادَلَ سجيتَا الخُيَلاءِ والتذلُّلِ . وكذلكَ نجدُ الحِلمَ المرتبةَ المتوسِّطةَ بينَ الغضَبِ وصِغَرِ النفسِ . كما أنَّ الانتِصاحَ هو الاعتدالُ بينَ الاستِبدادِ بالرأيِ والانقيادِ الاعمى لِمشورةِ الآخرينَ وهَلُمَّ جرًّا

واُعلموا يا اولادي — انَّ القُلامةَ التي تُؤْخَذُ من الجانبِ القويِّ وتُوضَعُ فوقَ الجانبِ الضعيفِ هيَ خيرُ سِمادٍ مُغذٍّ لأنها تَيبَسُ وتستقطِرُ الاندا خواصَّها فيغتذي بها ذاكَ الضعيفُ ويماثِلُ القويَّ تمامَ المماثلةِ وتكونُ حينئذٍ «كلُّ الاشياءِ تعمَلُ معاً للخيرِ» (رو ٨ : ٢٨) فيجبُ والحالةُ هذهِ أن لا نَطرَحَ القُوَّةَ الكامنةَ في الأخلاقِ بل علينا ان ننقلَها من جِهةٍ الى جِهةٍ اخرى تعاكسُها فتتحوَّلَ الرذيلةُ الى فضيلةٍ . فان رأينا أننا عُرضةٌ للتأثُّرِ الشديدِ منَ الاقوالِ الجارحةِ فعلَينا ان نقلِّمَ ما نما من تأثُّرنا للإرجافِ الكاذبِ وتُضيفَهُ قوَّةً الى

(١) الانفاق في غير محل الانفاق

التأثُّر لأنباء مصائب أُخوتنا في الجامعة البشرية. وإن رأينا أنَّ عدمَ الاكتراث سجية لنا فلننقلها من عدم الاكتراث لمشروعات البرّ الى عدم الاكتراث للأراجيف الكاذبة التي تُوجَّهُ الينا فبهذا نكونُ أشبهَ بمن نقل قصاصة عشب من محلٍّ الى آخر

هذا الذي يجبُ علينا ان نُجريهُ في زمن النموّ اي في عصر الفتوَّة الذي به تنمو الأخلاقُ الكريمة فتصيرُ ملكةً لأصحابها وقد أفهمنا ذلك الحكيمُ الملك بقوله «ربِّ الولدَ في طريقه فمتى شاخ ايضاً لا يحيدُ عنهُ» (ام ٢٢: ٦)

هذا ولا مندوحة لي عن الإلماع الى كلمة كاترين — لا أعلمُ ولكنني لا أشكُّ أنهُ عملٌ جيدٌ — فاذا كانت تثقُ بأني أعملُ عملاً جيداً مع أنها لا تُدرِكُ غايتهُ وأنا وهي وانتم جميعاً بشرٌ ومدارِكنا كلُّها بشريةٌ فالتفاوتُ بينها يسيرٌ فكم بالأولى يجبُ ان تكونَ ثقتنا بالله عزَّ وجلَّ وتسليمنا بأنَّ كلَّ ما يُجريهِ انما يجريهِ لخيرنا المحْضِ وان كنا لا ندرك سرَّهُ فليس لنا ان نتذمرَ او نطعنَ على حكمة الله السامية عن مدارِكنا سموَّ جوهرهِ الربَّانيِّ عن جوهرنا المخلوق فليكن تسليمنا الى الله عن نيةٍ صافيةٍ وإيمانٍ وطيدٍ أنهُ يختارُ لنا الحظَّ

الصالحَ بجزيلِ حكمتهِ ووافرِ محبَّتهِ وبهذا نذخرُ لأنفسنا راحةَ بالٍ ونكسبُ بركاتهِ الفائقةَ الإحصاء

والخُلاصةُ انهُ يجبُ عليكم ان تُعادِلوا في أَميالِكم فتسلكوا في سُبُلِ الفضيلةِ وان تَذْعنوا لمشيئةِ اللهِ فتنالوا الأَجرَ السماويَّ وبهذينِ الأَمرينِ تربَحونَ السعادةَ في الدَّارَينِ وهذا ما يَطلبُهُ كلُّ عاقل

الفصل الخامس

عصر الامال

وصف افق نيويورك في صباح نقي . افتتاح النهار بالصلاة . متى يجب ان تكون الرياضة . السذاجة في اتم مظاهرها . كيف يهدي الاخ اختهُ الى الحقيقة . المغصوب لا يبقى . المظاهرات الكاذبة . الآمال الكاذبة . سعي العاقل . تشبيه الابناء بالنَّور . كلمة في الولد الشرير . ما هي التربية المسيحية الحقيقية

« كونوا يا اولادي ما يحيا لا ما يسقط من حَملِ الوجودِ الكوني »

أَأَزهاريَ الحَسناءَ أَنتم أَعزُّما أَراهُ بفِردَوسِ الخَليقةِ أَزهارا
فكونُوا من الزَّهرِ الذي زِينَ غُصنهُ بهِ لا الذي يهوي (١) يُعانِقُ أَحجارا

(١) يسقط

خُلقنا لإثمارٍ بصالحِ سيرةٍ فأكرِمْ بنا ان نجنِ للخيرِ أثمارا
واماً اذا عِشنا ومُتنا ولم نُجدْ ثِمارَ تُقىً نَجني ولا جرَمَ العارا
فنترُكُ في الدنيا الناالذكرَ أوزارا ونلبَسُ في الأُخرى مآزرَنا النارا

السماءُ صافيةٌ كمِرآةِ الغريبةِ والطقسُ نقيٌّ كقلبِ الناسكِ المتعبّدِ والقلوبُ في تهلُّلٍ كأنما نسائمُ السعادةِ تنفحُها هبّةً اثرَ هبّةٍ والشمسُ تُحاوِلُ الخروجَ من خبائِها كأنّها عروسٌ تتأهّبُ لكي تسيرَ في موكبِ الإكليل

في ذلكَ الوقتِ الجميلِ خرجتِ السيّدةُ اليصاباتُ معَ اولادِها الى الحديقةِ بعد ما ادّت وبنيها واجبَ الصلاةِ فلمّا صاروا في منتصفِ الحديقةِ أخذَ الاولادُ يُظهِرونَ أنهم على تمامِ النشاطِ للقيامِ بما ترى والدتُهم واجباً ان يقوموا بهِ

فاشارت اليصاباتُ عليهم أنْ يُلازِموا السكينةَ قائلةً «لكلِّ شيءٍ زمانٌ ولكلِ امرٍ تحتَ السماواتِ وقتٌ[1]» فللتنزُّهِ وقتٌ وللرياضةِ بالعملِ الجسديِّ وقتٌ آخر. فدعوا الرياضةَ الى عصرِ النهارِ واغتنموا الآنَ استنشاقَ الهواءِ اللطيفِ الحاملِ رائحةَ الازهارِ ومتّعوا نواظرَكم بإطلاقِها في ما يتراءى

(١) جامعة ٣:١

أَمامَنا من مَشاهدِ الأَشجارِ الناضرة

فأَحاطوا بوالدتِهم وكانت تَمشي بقَدَمٍ رصينةٍ كأَنها تطلُبُ العُثورَ على ما تتَّخذُهُ موضوعًا مُفيداً وفكرُها يَجولُ بينَ السماءِ والأَرضِ والاشجارِ والاعشابِ كنَسْرٍ يَبحَثُ عن طائرٍ ليُنشِبَ فيهِ مَخالِبَهُ

وبينما هيَ كذلك تقدَّمت فيكتوريا من إِحدى الشجراتِ وأَخذت تَجمَعُ شيئًا مِمَّا تساقطَ من النَّورِ الذابلِ فقالت لها حنة — أَترُكيها يا شقيقتي لعلَّها تَصيرُ مثلَ جدْوَلِ العُشبِ ذاك — واشارتْ الى جدْوَلِ العشبِ الذي قلَّمتهُ والدتُهم سابقًا . فضَحِكَ صموئيلُ وقالَ لها — دَعيها يا شقيقتي انَّ هٰذا النَّورَ لا ينمو فيصيرُ عشباً أَما تَرَينَ أَنهُ أَخذَ يَذبُلُ وسيَضمحِلُّ قريباً

فالتفتَتْ حنةُ الى يُوسُفَ كأَنها تَسأَلُهُ عن صِحَّةِ كلامِ صموئيلَ فقالَ لها — ذٰلكَ صحيحٌ . أَلا تَرَينَ أَنَّ ذاكَ الزَّهرَ غيرُ ذي اصل لاصِقٍ بالتُّراب . واما العشبُ فهو مُلتصِقٌ بالتُّراب

حينَئذٍ رأَتِ الأُمُّ سبيلاً لمخاطَبَةِ اولادِها فقالت — لماذا يا ولدي يوسُفَ قد سقطَ هذا النَّور

فأجاب — إمَّا لأنَّ الحاجةَ اليهِ قد زالت او لأنهُ لم يمتصَّ من مائيَّةِ الشجرةِ ما يحيا بهِ

فقالت وكانوا جميعاً قد أصغوا لِاستماعِ كلامِها — ياأولادي انَّ النورَ يردُ أوَّلاً مقدّمةً لما يليهِ من ورَقٍ وثمرٍ فينتقلُ من طورٍ الى طورٍ . وفي هذا الِانتقالِ يتساقطُ الثوبُ الذي يكونُ قد أتى ما يخلفهُ ويسقطُ ايضاً كثيرٌ من العقدِ الضعيفِ فهل تعلمونَ ماذا تقولُ لنا الطبيعةُ بهذا الانتقالِ القانونيّ

نقولُ لنا انظروا هذهِ الحقيقةَ العمرانيةَ — إنَّ الثوبَ الخارجيَّ سيسقطُ وبالتالي انَّ التظاهرَ المستعارَ سيقعُ غشاؤهُ وإنَّ ما نراهُ جنىً يردُ عن الطبيعةِ وهو فوقَ طاقتِها لا يبقى بل تسرعُ الطبيعةُ نفسُها الى نفيهِ

أيُّها الاولادُ — انَّ الثوبَ المستعارَ سيزولُ فأحسنوا في امتلاكِ ما ليسَ بمستعارٍ . واعلموا ان الجنى الذي تغتصبونهُ اغتصاباً ستتناولهُ منكم عواملُ أقوى منكم فيذهبُ من يدِكم

فتأملوا يا أولادي كيفَ هيَ حالةُ الدُّنيا — إنها ثوبٌ مستعارٌ ولذلكَ ما برحت تسقطُ عن الناسِ شيئاً فشيئاً ليلبسوا ثوبَ الآخرةِ . ويذهبُ ما اغتصبوهُ من عظمةِ المظاهرِ الفارغةِ

الى يدٍ قادرةٍ هيَ يدُ المَوت

أُنظُروا يا اولادي انَّ النَّورَ الساقطَ زايلَهُ جمَالُهُ سريعاً فهو كالمُظاهراتِ البرَّاقةِ التي لا تلبثُ ان ينكشِفَ الغِطاءُ عنها ويتحوَّلَ منظرُها من جميلٍ شائقٍ الى ذاوٍ فاسدٍ لا يُكترَثُ لهُ فيَدخُلَ في دَورِ الدِثار . والطِفلُ الصغيرُ هوَ الذي يتناوَلُهُ كشيءٍ لهُ قيمةٌ كما تناوَلتْ فيكتوريا هذهِ الأوراقَ زاعمةً أنَّها ذاتُ قيمةٍ . إذَنْ فالذي يُكِبُّ على الاهتمامِ بتلكَ المَظاهرِ الكاذبةِ هوَ طِفلٌ في أفكارِهِ فارفعوا أنفسكُم عنْ أن تكونوا أطفالاً فان التعقُّلَ في أوَّلِ مراتبِهِ يدُلُّنا أنَّ الاهتمامَ بها ذاهبٌ ضياعاً لأنها ليست ذاتَ قيمةٍ كما قالَ صموئيلُ في هذا النَّورِ انهُ لا قيمةَ لهُ

أُنظُروا كيفَ سقطَ الحَمْلُ الذي لا حظَّ لهُ من إمدادِ الشجرِ الحيويِّ واعلَموا أنهُ مثالٌ للآمالِ المتجاوِزةِ جانبَ الحِكمةِ فهيَ لا حظَّ لها من النَّجاح

إنَّ عصرَ الشبابِ كثيرُ الآمالِ التي تكونُ مُنتَجاتُها غيرَ ذاتِ قوَّةٍ لتُحافِظَ عليها فلا تلبثُ أن يعروها من الخَيبةِ ما لا يُبقي عليها . فحذارِ أن تعطِفوا قلوبَكُم الى أميالٍ ليسَ في

إمكانِكم ان تُتابعوا بَذلَ الإمدادِ لها لأنها ستَخيبُ أخيراً والعاقلُ لا يَسعى الى الخَيبة

أُنظُروا ما يَسقُطُ من النَّور وما يَتبعهُ . واعلموا انَّ البَنينَ الذينَ هم أكاليلُ رُؤوسِ الآباء هم كذلكَ النَّور . فالذي يسقُطُ وَرَقاً هو أشبهُ بنِفايةِ البنينَ الذينَ لم يكونوا في تصرُّفاتِهم على حِكمةٍ وهُدًى فاذا أُمِّحوا من صفيحةِ الوجودِ كانوا كلا شيءٍ وآباؤهم يَعتاضُونَ عنهم بالباقينَ المُهذَّبينَ والنامينَ حَسبَما يَطلُبُ نِظامُ البَقاء

تأمَّلوا يا أولادي كيفَ لم يُبالِ احدٌ منكم بالأوراقِ الذاويةِ الأَفيكتوريا وقولوا هكذا يحدُثُ في العالَمِ انَّ الأولادَ الأشرارَ لا يُكْبِرُ فَقدَهم عاقلٌ حكيمٌ تبعاً لقولِ الحكيمِ ابنِ سيراخَ « أَلموتُ بلا وَلدٍ خيرٌ من الأولادِ المنافقينَ »(٤:١٦) والذينَ يروعُهم ذاكَ الفقدُ هُمُ الذينَ لم يزالوا أطفالَ العُقولِ لا يُدرِكونَ الحقيقةَ ولا يعلَمونَ انهم يتحرَّقونَ على الشقاء الذي اراحهمُ اللهُ منهُ

كونوا يا أولادي ما يَحيا لا ما يَسقُطُ من حَملِ الوجودِ الكونيِّ وذلكَ يكونُ لكم إذا اغتذيتم بالتَّربيةِ المسيحيةِ التي هيَ منهاجُ الحياةِ الحقيقية

الفصل السادس

عصر الشبيبة

وصف جو نيويورك في حالة اكفهراره . رأي امرأة في تمرين بنيها على احتمال التغيرات الجوية . تاثير الاهوية على الاشجار . وعلى الرياحين . وعلى الاعشاب . تعليل سقوط الشجرة وسلامة العشبة من اذى الريح الشديدة . تشبيه الاهوية بالاهواء . تشبيه الناس بالاشجار والاعشاب . فائدة التساند في اعمال الحياة . تفضيل الزواج على العزوبة . وجوب حفظ الطهارة . كيف يُطلَب المجد

« تنحّوا عن التعرّض بقوّة الصدام العنيف لما هو فوق طوقكم شأنَ العاقلِ الحكيم الذي لا يغترّ بنفسه »

بَنِيَّ لي منهلُ الإرشادِ أُوردُكم ... منهُ نصائحَ شتّى ماؤُها شَبِمُ[1]

من ذاقها فارتوت أحشاؤُه سعدت ... حياتُهُ فهوَ في الأقيالِ[2] منتظمُ

دَعوا صداماً عنيفاً تبتغونَ بهِ ... دفعاً لأمرٍ عظيمٍ فوقَ طوقكمُ

ذَيّاكَ شأنُ غرورٍ إنْ ألَمَّ بكم ... طمَّ الأذى فانفضوا من ذاكَ طوقكمُ

شأنَ الحكيمِ الذي ما جاز قدرتَهُ ... مسعاهُ فهوَ أليفُ النجحِ محترمُ

---

(١) بارد عذب (٢) الملوك

جوُّ نيويورك لا يَستقرُّ على حالٍ فبينما هوَ على غايةِ ما يكونُ من الاعتدالِ ينتقلُ فُجأةً الى حرٍّ شديدٍ او بردٍ قارسٍ فيكفهرُّ محيَّا[1] الأُفقِ وتتلبَّدُ الغيومُ في اطرافهِ وتَنهمرُ[2] الامطارُ بشدَّةٍ ما عليها مزيدٌ ويتعذَّرُ الذَّهابُ والأَيابُ الاَّ بالمركَباتِ الكهربائيةِ والقِطاراتِ الحديديَّةِ والزوارقِ الكبيرةِ ويهبُّ الإعصارُ[3] بعُنفٍ حتى تُرَى القُبَّعاتُ متطايرةً كأَنها الطيَّاراتُ ولا سيَّما في ما يُداني الأَبنيةَ الشاهقةَ حيثُ تَزيدُ الطِباقُ منها على العشرينَ عدداً فانَّ الهواءَ هُنالكَ يتزاحمُ بقوَّةِ التَّصادُمِ ويكادُ المارُّ بها يَحسَبُ انَّ من الهواءِ حِبالاً تَتدلَّى من شاهقٍ فتكبِّلُهُ[4] من أَطرافهِ وتَتجاذَبُهُ

وهذا التغيُّرُ الفُجائيُّ مألوفٌ عندَ السُكَّانِ فلا يتأَثَّرونَ لحُدوثهِ لأَنهم شبُّوا عليهِ ومَن أَلِفَ امراً لم يرَ بهِ بأْساً[5]. ولذلكَ أَصبحتِ السيدةُ اليصاباتُ في أَحدِ الأَيامِ فوجدتِ الإعصارَ يهبُّ بشدَّةٍ والأَمطارُ تتدفَّقُ بغزارةٍ ومُحيَّا الشمسِ محجوباً بنِقابٍ[6] أَسودَ

---

(١) وجه (٢) تسيل (٣) الريح الشديدة المعروفة بالزوبعة (٤) تقيده (٥) اذًى (٦) منديل لطيف يتدلى من راس المرأة الى انفها يغطي وجهها

وكانَ من رأيِ هٰذهِ السيدةِ انَّ التعرُّضَ للتغيُّراتِ الجويَّةِ حسَنُ العاقبةِ لأنَّ الجسدَ في بدءِ نُموّهِ يقِفُ موقفَ المُحارِبِ لمُهاجماتِ العوارضِ الطبيعيةِ فانِ اُستطاعَ ان يحتملَ وطأتَها شبَّ على تلكَ العادةِ فأصبحَ غيرَ مُبالٍ بأدوارِها وهانَ عليهِ احتمالُ الحرِّ والبرد

وبما أنَّ مُستقبلاتِ الأيامِ مكنونةٌ في عِلمِ اللهِ وغيرُ مُستعلَنةٍ لأحدٍ من الناسِ فما من أُمٍّ تعرِفُ ما هيَ مهامُّ بنيها متى كبُروا ولهذا أحبَّت اليصاباتُ ان تُربّيَ بنيها منذُ الطُّفولةِ تربيةً عسكريةً ليكونَ لهم ملءُ الاقتدارِ على الخدمةِ في اشقِّ المهامِّ وإحرازُ الكرامةِ بالثَّباتِ دونَ تذمُّرٍ ولذٰلكَ لم تُغفلْ فرضَ الخروجِ بهم الى الحديقةِ حينما أمسكت مُقلةُ[1] السَّحابِ دَمعتَها

فتمشَّت السيدةُ اليصاباتُ وبنوها حواليها فأبصروا الاهويةَ القويَّةَ قدِ اُقتلعتْ بعضَ الاشجارِ من اُصولِها فسقطتْ على الارضِ سُقوطَ القتلى في ساحاتِ الكِفاحِ[2] وقد سقطَ عن بعضِ الأغصانِ الجانبُ الاكبرُ من الأوراقِ والازهارِ وتكسَّرَ فريقٌ من الاغصانِ ولبثَ متعلِّقاً باصولِهِ. واما المشهدُ

(١) عين (٢) الحرب

الذي توجَّهت اليهِ النواظرُ باهتِمام فمشهدُ الأَغصانِ المتموّجةِ مع الرياحِ تموُّجاً متواصلاً ولها حفيفٌ كأَنَّهُ أَنَّاتُ منهوكِ القوى يطلبُ مَدَداً ولا يجدُ المَدَد

فجالت في أَطرافِ الحديقةِ ونظرَت كلَّ ما عرَضَ على الأَشجارِ ثم عطفتِ النظرَ الى الرياحينِ في أَحواضِها فوجدت أَنَّ التأْثيرَ عليها أَقلُّ . واما الاعشابُ الخضراءُ فكانت كأَنَّها مَسيلُ ماءٍ وقد جرى الهواءُ فوقَها كما يجري الماءُ القويُّ الانبِعاثِ في زرعٍ نامٍ فتستلقي الاعشابُ بعضٌ على بعضٍ بقوَّةِ التصادُم . ولذٰلكَ كانَ الهواءُ ليسَ لهُ تأْثيرٌ مؤْذٍ عليها بل دعاها تستكينُ الى التَراصِّ كما تتراصُّ صفوفُ الجُندِ في قِلاعها حينَ يُداهِمُها جيشُ العدوِّ الجرَّار

ولمَّا أَتمَّت طَوافَها عادت ببنيها الى المنزلِ ووقفت قليلاً بهم في مَجلسِ الحديقةِ الذي كانَ أَشبهَ بغُرفةٍ ذاتِ ثلاثةِ جُدْرانٍ وسقفٍ وهُنالكَ سأَلت وَلَدَها داودَ قائلةً — يا أُبَيْ: لماذا سقطتْ تلكَ الشَّجرةُ مُقتلَعةً وهـذهِ العُشبةُ لم تُقتلَع فاجابها — حدَثَ ذلكَ بقوَّةِ التدافُعِ فانَّ العُشبةَ ليست ذاتَ حجمٍ ضخمٍ ولا جُذورَ قويةً لها فلمَّا ضربَتْها الرياحُ استنامَتْ

لها فعبرت الرياح ولم تلحق بها ضرراً . واما الشجرة فهي ذات حجم كبير وجذور ممتدة في أعماق الثرى فليس في إمكانها التخلف عن موقفها فلما هاجمتها الرياح لم يكن لها الا الوقوف بوجهها فاشتد التدافع بين الفريقين حتى خرت الشجرة

فقالت اليصابات — أحسنت يا بني وهذا المشهد الطبيعي انما هو مثال للمشهد الأدبي الذي يحدث كل يوم وهو قادم عليكم يا أولادي فكونوا على بصيرة للنجاة من غوائله[1] وللفوز بالفائدة الكبيرة الناجمة عنه

ان الأهوية ضرورية في هذا الوجود الكوني فلا يخلو منها مكان على الإطلاق لكنها تتفاوت شدة فتكون في بعض الأماكن اشد مما هي في أماكن أخرى . فالأهوية تمثل لنا اهواء الشبيبة التي لا يخلو منها مكان على الإطلاق ولكن البلاد التي تكون فيها الحرية الكاذبة منحلة من القيود هي ولا ريب ميدان اوسع لأهواء الشبيبة

والناس في كل مكان أشباه ما حوته هذه الحديقة فان الذي ينام عن الاهواء الكاذبة حتى تعبر[2] وتجتازه اي انه يدع الاماني الباطلة غير واجدة وسيلة للاستقرار في مجامع

(1) جمع غائلة بمعنى داهية (2) تمر

قلبهِ ينجو من غوائلها ويفوز عقيبَ اجتيازها مُبعَدةً عنهُ بفائدةٍ كما نُشاهِدُ هذا العُشبَ النائمَ قد اكتسبَ بمرورها عليهِ نوعاً من المظاهرِ الجميلة. واما من وَقفَ في وجهها وتعرَّضَ لصدامها أي من رحبَ بقُدومِ أمانيهِ وأنزلها في شغافِ[1] مُهجتهِ فهي تؤثّرُ عليهِ تأثيراً مختلفاً تارةً تتركُهُ بلا قرارٍ كما ترى تلك الأغصانَ المتموّجةَ وتارةً تهشّمُهُ تهشيماً كما نرى تلكَ الاغصانَ المتكسّرةَ وتارةً تُذيقهُ كأسَ الهلاكِ كما اقتلعت تلكَ الشجرات

أُنظُروا يا أولادي الى أنَّ الشدائدَ تُظهرُ قوّةَ فاعليتها بالأشدّاء فالأشجارُ الضخمةُ قد تأثّرت بالأهويةِ التأثرَ الشديدَ واما الاعشابُ فلا . أفرأيتم أن العظيمَ معرَّضٌ للنوائبِ أكثرَ من الحقيرِ فافهموا إذن سرَّ الحكمةِ في قولِ الحكيمِ ابنِ سيراخَ القائلِ « يا بنيَّ لا تلتمسْ من الربِّ رئاسةً ولا من الملكِ كرسيَّ مجدٍ (لو ٤:٧) » فانهُ نظرَ الى مصائبِ الكبراءِ فتمنّى لاعزّائهِ ان لا تأتيَ عليهم محنُهم وليسَ مرادُهُ أن السعيَ للارتقاءِ في الكرامةِ شأنٌ يجبُ نبذُهُ أو انَّ العظماءَ حقيقةً تحتَ طائلةِ السقوطِ اذا كانَ تركُنهم قائماً على قواعدِ الفضلِ الحقيقيِّ أفلا ترونَ ان الشجراتِ الراسخةَ العروقِ في تربتها

(١) غطاء القلب

ظلّت ثابتةً فلمَ يكنِ الكسْر نصيباً الاَّ لِمَن ضَخُمت منظراً خارجياً وصَغُرت حقيقةً داخليةً فحلَّ بها ما ذكرَهُ سليمانُ الحكيم اذ قال « قبلَ الكسْرِ الكبرياء وقبلَ السقوطِ تشامخُ الروح » (ام ١٦ : ١٨)

ومما يُمكنكُم مُلاحظتُهُ بأَدنى رويَّةٍ انَّ التَراصَّ حيثُما وُجدَ قلَّ الأَذى فالأَعشابُ مُتراصَّةٌ ولذٰلكَ قدِ انصرفت عنها الأَذيةُ وكذٰلكَ تجدونَ الاغصانَ المتضامَّةَ بغيرِ أَذًى واما الغصونُ المُتطرِّفةُ فقد جارت عليها أَيدي الرياحِ تكسيراً. فاُعلموا من هذا أَنَّ التسانُدَ في المطالبِ الحيويَّةِ والتآلُفَ بالحشمةِ يجعلانِ أَهواءَ الشبيبةِ عادمةَ التأْثيرِ السيِّءِ. فالاِنفرادُ يُشبهُ العزوبةَ والتآلفُ يُشبهُ النموَّ العائليَّ فالعازبُ أَقربُ الى الاخطارِ المُتلفةِ من ربِّ العائلةِ والأَهواءُ تعصفُ في رأْسهِ بتأْثيرٍ أَعظمَ جدًّا من تأْثيرِها في رأْسِ المتزوِّجِ وهذا بُرهانٌ جليٌّ على انَّ الزيجةَ أَفضلُ من العزوبةِ وأَقوى على قمعِ المؤثِّراتِ الرديئة (١)

تأَمَّلوا كيفَ يكونُ انفرادُ الأَغصانِ اكبرَ مُساعدٍ للسقُّوطِ في سُلطةِ الهواءِ وقيسوا على ذلكَ انفرادَ الشابِ عن أَبويهِ

(١) ردّ

وأُخوته فانهُ يكونُ حينئذٍ اقربَ الى السُّقوطِ في يدِ الأَهواء المُهلِكةِ

إنّ هذا الإِعصارَ الفويَّ هوَ جالبُ أَخطارٍ ولٰكنَّ كثيرًا من الخيراتِ يردُ عنهُ وكذلكَ عصرُ الشبيبةِ العظيمُ الأَخطارِ فانَّ الخيرَ العميمَ يَصدُرُ عنهُ لمَنِ اتَّخذَ الفضيلةَ هاديهُ الأَمينَ فمرَّت عليهِ أَهواءُ الشبيبةِ ولم تُوقِعْهُ في تهلكةٍ ولا اركبَتْهُ على مَتنِ العُنفوانِ الأَثيمِ الذي مَنِ امتطاهُ[1] لم يستقرَّ على حالٍ فينمو نُموَّ الاغصانِ السالمةِ من أَذى الاهويةِ والاشجارِ الراسخةِ التي لا تُزعجُها الرياحُ الشديدةُ الهُبوبِ والأَعشابِ الدقيقةِ القوائمِ التي لا تُعاندُ القوّةَ

فيا بَنِيَّ أُثبتوا في عصرِ الشبيبةِ على أَركانِ العَفافِ والطَّهارةِ كتلكَ الاشجارِ المُزدريةِ بقوّةِ الأَهويةِ وكُونوا مُندَمِجينَ معًا في سِلْكِ الأُلفةِ رافعينَ على رؤُوسِكم شاراتِ خِدمةِ البرِّ والتصرُّفِ بواداعةِ الحِكمةِ · مكتسينَ منَ الأَخلاقِ الجميلةِ بما هوَ أَجملُ من اوراقِ الاغصانِ الخَضْراءِ وأَطيبُ أَرَجًا[2] متشبّهينَ بتلكَ الاغصانِ المتضامّةِ فلا تستطيعُ العواملُ الخارجيّةُ ان تُفرّقَ اتّحادَ قُلوبِكم في انتهاجِ البرِّ والصلاحِ · وتنحّوا عنِ

(١) ركبه (٢) رائحة طيبة

التعرُّضِ بقوّةِ الصِدامِ العنيفِ لِما هوَ فوقَ طَوقِكم شأنَ العاقلِ الحكيمِ الذي لا يغرّرُ بنفسهِ كما قالَ الحكيمُ ابنُ سيراخ «لا تَطلُبْ ما يُعييكَ نَيلُهُ ولا تَبحث عمّا يتجاوزُ قدرتَك» (ابن سيراخ ٣:٢٢) وشاهدُ ذٰلكَ أنكم ترَون هذهِ الأعشابَ تَستنيمُ الأهويةِ . فعليكم أن تجتنبوا كلَّ ما يبعثُ الميلَ الى التورُّطِ في متابعةِ الأهواءِ وليَكُنْ لكم من نفوسِكم نُصراءُ تُضافِرُكم على احتيازِ السلامةِ منَ الأذيّةِ وما أُولٰئكَ النُصراءُ الاّ الاخلاقُ الكريمة

يا بَنيَّ — إنَّ من أهواءِ الشبيبةِ حبَّ المجدِ حتى بَذْلِ الحياةِ وراءَ نَيلِ المراتبِ العُليا فاذا عصفتْ في رؤوسِكم الرَّغبةُ فيهِ كما ترَونَ هذهِ الرياحُ تَعصِفُ في حديقتِنا هٰذهِ فليكنْ ثَباتُكم في طَلَبِ المَشروعِ[1] منهُ فقط ثباتَ هذهِ الشجراتِ الفائمةِ منضمّينَ معاً كانضِمامِ تلكَ الاغصانِ منصرفينَ عن مُعانَدةِ ما ليسَ في إمكانِكم معاندتُهُ انصرافَ هذهِ الاعشابِ عن مقاومةِ الهواءِ مع بقائِكم متناصرينَ متآلفينَ تنجحوا بإذنِ اللهِ النَجاحَ الشهيَّ

(١) المشروع الذي اجازهُ الشرعُ وبالتالي تنهاهم عن اطلاب غير الجائز شرعاً

فالرِئاسةُ عن جدارة[1] نصيبُ مَن أَرضَوُا اللهَ ولذٰلك يُورِدُ الكتابَ الالهيَّ هذهِ الآيةَ « ويَجعلُكَ الربُّ رأْساً لا ذنَباً وتكونُ أَبَدًا مُرتفِعاً ولا تكونُ مُنحطًّا اذا أَطَعتَ وصايا الربِّ لِتحفَظَها وتَعمَلَ بها » (تث ٢٨: ١٣)

فسقطت هذهِ الكلمةُ في آذانِ اولئكَ الاولادِ سقُوطَ حُبوبَ البُرِّ[2] في التُربةِ الجيّدةِ وغاصت الى أَعماقِ قلوبهم وأَكّدوا لوالدِتهم أَنهم سيَجرونَ في مُستقبَلِ حياتِهم على ما أَوصتهُم باتِّباعهِ

الفصل السابع

معرفة العمرِ

العادة ملكة محكَّمة . ليس بين النمو الجسدي والعمر علاقة معينة . ان الشجرة تكتسي كل سنةٍ قشرةً جديدة . تعليل اختلاف حجم الاشجار . الاعترف بسمو حكمة الله عقول البشر . لماذا لا يهبنا الله كل ما نشاء . المؤثرات على كل انسان . اين يكون النجاح اعظم . اين ينمو الليمون . تأثير عناية الوالدين . كلمة في بيان اختلاف اميال البنات والغلمان . ناجم التواضع . ناجم الكبرياء

---

(١) استحقاق (٢) القمح

« التواضعُ مصحوبٌ بالخيرِ القريبِ التناوُلِ الشهيِّ الثمار، واما التكبرُ فيكونُ بلا ثمرةٍ طيّبة »

بَنِيَّ مَن كانَ ذا نفسٍ قد اتَّخذت نَهجَ الوَداعةَ مَنحًى أَدرَكَ الوطَرا
ومَن تَشامَخَ عاشَ العُمرَ في نكَدٍ تُقصيهِ أَنفُسُ أَهلِ الفضلِ مُحتَقَرا
فأَنزِلوا عِظَتي في الصَّدرِ واُعتبِروا خيرُ الوَرى مَن بِقَولِ الناصحِ اعتبَرا
انَّ التواضُعَ قد زِينَتْ حدائقُهُ بكلِّ غَرسٍ جميلٍ طيّبٍ ثمرا
أَمَّا التكبُّرُ فهوَ البورُ مُزدَرعًا شوكًا فصاحبُهُ يَستثمِرُ الضَرَرا

مَن يألفْ عادةً تُصبحْ بهِ ملَكةً راسخةً فيتعذَّرَ عليهِ أَن يعدِلَ عنها ولذلكَ كانَ منَ الواجبِ الاهتمام بالبنينَ منذُ الصغرِ لتكونَ اميالهم منصرفةً نحوَ ما يُفيدُ فالسيدةُ اليصاباتُ عوَّدتْ بنيها ان يجولوا معَها في الحديقةِ فصاروا يعُدُّونَ ذلكَ من ملَذَّاتِ الحياةِ ولا يتحوَّلونَ عنهُ

وحدَثَ أَنَّ المسترَ بولسَ فاز بسانحةِ راحةٍ فأَحبَّ قَضاءَها بينَ بنيهِ فشاهدهم يدرسونَ باجتهادٍ ويتمّمونَ فروضَهم بكلِّ نَشاطٍ فلمَّا انتهوا منَ المطالعةِ والقاءِ الدُروسِ مضوا معَ الوالدَينِ الى النُزهةِ وهناكَ أَخذوا يُجرونَ العابَ الرياضةِ « الجمنستيك » ثمَّ انتظمَ شَملُهم في مدخَلِ الحديقةِ وأحاطوا بوالديهم فأَحبَّ الأَبُ أَن يمُدَّ بِساطَ الحديثِ معَ اولادِهِ

فسأل ابنتهُ تقلا قائلاً — أترين يا ابنتي تلك الشجرة الصغيرة الحجم فما هي

فأجابت — شجرة ليمون

فقال — وما تلك الشامخة التي تقابلها

فاجابت — شجرة حور

فسألها — وكم تظنين أن شجرة الحور تكبر شجرة الليمون سناً

فاجابت — يا أبتِ · هذا الموقف لا وجه واضحاً لبنيان الظن عليه

فقال — ولِمَ لا وجه وشجرة الحور بقدر رفيقتها مرتين طولاً

فاجابت — يا أبتِ · ليست أعمار الأشجار بطولها وتفرعها فان من الأشجار ما لا ينمو كثيراً وما ينمو كثيراً والنموّ عائد الى خصب التربة والاهتمام الخصوصي وخاصة المغروس فان التفاح لا ينمو كما ينمو النخل مهما بذلت العناية في إنمائه وذلك لأن النخل به من نفسه من خاصة النموّ ما ليس بالتفاح من نفسه · كما أن النخل يجود في بعض الاماكن دون بعض ففي ما يصلح له يعلو علوًّا عظيماً ويأتي بثمار جيدة

وذلكَ لخصبِ التُربةِ وفي بعضِ الاماكنِ لا يعيشُ فان عاشَ فلما يُبذَلُ لهُ من الاهتمامِ الخُصوصيّ

فقالت لها الوالدة — احسنتِ يا ابنتي فهل تعلمينَ بماذا تنطقُ هاتانِ الشجرتانِ المختلفتانِ علُوًّا وثمرًا

فأجابتها الفتاةُ على الفورِ — يا والدتي . إنَّ لغةَ الأشجارِ والأزهارِ لا أزالُ آخذُ دُروسَها عنكِ فتكرَّمي بدرسٍ جديدٍ ولكِ المِنَّةُ (١) فابتسمتِ الأمُّ وقالت — يا ابنتي كلُّ شجرةٍ تكتسبُ في كلِّ سنةٍ قشرةً جديدةً تطوّقُها من أسفلِها الى أعلاها . وهذهِ القشرةُ تكونُ في بعضِ الاشجارِ ظاهرةً وفي بعضِها غيرَ ظاهرةٍ . ومثالُ الأولِ شجرةُ الصنوبرِ فانَّ من أرادَ ان يعرفَ عددَ سنواتِها يحتزُّ من جانبِ أرومتِها حتى ينتهيَ الى اللُّبابِ ثمَّ يعدُّ طباقَ القشورِ فيكونُ عددُها عددَ سنواتِ تلكَ الشجرةِ . والثاني واقعٌ في كثيرٍ من الاشجارِ التي نرى لحاءَها رقيقًا فيكونُ الاكتساءُ باللُّبابِ أوضحَ ولا يُعرَفُ سنُّها الا بعدَ القطعِ

وحسنًا قلتِ أنَّ الأشجارَ لا تُعرَفُ سنواتُها من حجمِها

(١) الاحسان

لانَّ خِدمتَها في الوجودِ مختلفةٌ واختلافَ حجمِها يُناسبُ اختلافَ خِدمتِها . ألاَ تذكُرينَ المثلَ الذي ضربَهُ أحدُهم عن غُلامٍ عجبَ من ضخامةِ السنديانةِ وصغرِ حجمِ ثمرِها وأعجبَ بدقةِ عروقِ البطيخةِ وكِبرِ حجمِ ثمرِها ونسبَ الاختلافَ في حجمِ الثمرِ الى خالٍ في حكمةِ الإبداعِ فما جالَ ذٰلكَ في خاطرِهِ حتى سقطَت على أنفِهِ ثمرةٌ من السنديانةِ فذاقَ بسقوطِها انزعاجاً هداهُ الى محجّةِ[1] الصوابِ . فقالَ هذهِ الثمرةُ على صغرِها كانَ لها هذا التأثيرُ المؤلمُ فلوكانت كما اتمنّى أي بحجمِ البطيخةِ لدقّت رأسي وأخمدت أنفاسي . فحكمةُ الإبداعِ الربّانيّ اسمى من حكمتي الوهميّةِ . وتابَ عن غرورِهِ وتعرّضِهِ لما هوَ فوقَ إدراكِهِ

فقالت كاترينُ — إنني أذكرُ أنّكَ لمّا رويتِ لنا هٰذهِ الحادثةَ أبنتِ لنا أنّ من الواجبِ أن نؤمنَ أنّ حكمةَ اللهِ تهيءُ لنا الأمرَ الأصلحَ بنا وأنّهُ لو كانَ اللهُ يهبُنا كلّ ما نشاءُ لعادتِ العاقبةُ علينا بالوبالِ كما كانتِ العاقبةُ على ذاكَ الغُلامِ هلاكَهُ لو أُخرِجَ لهُ تصوّرُهُ منَ الوهمِ الى الوجودِ

فابتسمَ الأبُ بكلمةِ ابنتِهِ لجُودةِ تذكُّرِها واما أُمُّها

(١) وسط الطريق

فقبلتها قبلة رضى كجائزة على فطنتها ثم استتبعت المقال هكذا — اننا من هذا نستنتج أن الله أعد لكل شيء ما يناسبهُ فشجرة الليمون لا تشمخ كثيرًا ولكنها تأتي بثمار شهية وقريبة التناول فتعلمنا بذلك أن التواضع الذي يستلزم ضرورة عدم الشموخ الباطل يأتي بالثمار الشهية القريبة التناول . واما الشموخ الى العلاء عن الكبرياء فلا ثمرة لهُ كما نشاهد شجرة الحور الشامخة بلا ثمر

ثم يجب ان لا ننسى ان لكل من خصب التربة والعناية الخصوصية وعضوية الوجود تأثيرًا عظيمًا فنستفيد من ذلك ان المحيط الذي نقطن في وسطه والعناية المبذولة من الوالدين والتغاير في العضوية العائلية لها تأثيرات في مستقبل الحياة

فالوجود في محيط أمة هادئة نشيطة ادعى الى النجاح من الوجود في وسط أمة مشاغبة متراخية عن العمل كما أن الليمون ينمو حيث يغزر الماء ويميل الطقس الى الاعتدال او الى الحرارة وتكون التربة جيدة فاذا كان في ارض خالية من الماء وماحلة التربة تعذر نموه

وعناية الوالدين تكسب بنيهم ما ينمي عقولهم فيزدادون

بصيرةً وتهذّبُ اخلاقَهم منَ الشوائبِ[1] السيّئةِ وتقوتُها بأجودِ الأغذيةِ الروحيّةِ كما أنَّ العنايةَ بالليمونةِ تزيلُ ما يزاحمُها على الاغتذاءِ من خِصبِ الأرضِ وتقتطعُ ما يكونُ منها غيرَ صالحٍ للنموِّ علاوةً على بذلِها لها الموادَّ المفيدةَ للاغتذاءِ

وتعهُّدُ أخلاقِ البنينَ لهُ شأنٌ كبيرٌ في التربيةِ فانَّ قلوبَ البناتِ أميلُ الى الشفقةِ والحنانِ كما أنَّ قلوبَ البنينَ اكثرُ حبًّا للأمورِ الشاقّةِ ذاتِ المظهرِ الإكراميِّ المعجبِ فأميالُ الاختلافِ النوعيِّ بينَ الاولادِ موجودةٌ كما يوجد الاختلافُ في قبولِ تبسُّطِ القامةِ صعوداً في شجرتَي الليمونِ والحور

فليكنْ يا أبنائي كلٌّ منكم متّخذاً عبرةً[2] من هاتينِ الشجرتينِ فانَّ التواضعَ مصحوبٌ بالخيرِ القريبِ التناولِ والنفيسِ الثمارِ كما نشاهدُ في الليمونةِ المتواضعةِ التي تمسُّ الثرى باطرافِها واما التكبُّرُ فلا ثمرةَ طيبةً لهُ كما نشاهدُ الحورَ المرتفعَ الى السحابِ بهامتهِ فانَّ أغصانَهُ فارغةٌ من الجنى المحبوب

فأطربَ بولسُ ما اوردتهُ زوجتهُ على مسامعِ بنيهِ وألقى

(١) العوارض (٢) عظةً

عليها نَظرةً تدلُّ على ابتهاجِ خاطرٍ وامتنانِ فؤادٍ لهذهِ الطريقةِ التي اتَّخذتها لتثقيفِ بنيها وتلقينِهم اكرمَ المبادئِ الشريفةِ

الفصل الثامن

الاغتراب

جواب ام حكيمة على عاطفة ولد نقية . ما هو شرط التجارة . كم يدٍ تعمل في راس صنوبر ليصل الى نيويورك . ما هي العلة الاولية في نجاح الغريب . كلمة في غلاء القوت ورخصهِ . عوامل نمو الشجر . ماذا تعلمنا تلك العوامل

« كلُّ ما هو حسنٌ وجيدٌ يجبُ ان ننسبهُ الى حكمة الله ورحمتهِ . وكلُّ ما ليس بحسنٍ ولا بجيدٍ يجب ان نرجعهُ الى جهل الانسانِ وسوءِ تصرُّفهِ »

عظِّموا اللهَ ربَّنا بمقالٍ ... وفعالٍ كجوهرٍ في عقودهْ
واستزيدوهُ من جزيلِ العطايا ... فهوَ يُهمي (١) النُّعمى على مستزيدهْ
واحذروا من إرسالِ طائشِ قولٍ ... يخرجُ المرءَ عن نطاقِ حدودهْ
كلُّ ما كانَ جيدًا وجميلاً ... فهوَ من حكمةِ العليِّ وجودهْ
والذي ليسَ جيدًا وجميلاً ... واردٌ عن ذميمِ سعيِ عبيدهْ
إنَّ فكرَ ابنِ آدمٍ يبتغي الشرَ كصادٍ (٢) يسعى لماءِ ورودهْ

(١) يُمطرُ (٢) ظمآن

بعضُ ما ليسَ لهُ شأنٌ في ارضٍ ما لكثرتهِ يكونُ لهُ الشأنُ الاكبرُ في أرضٍ أُخرى لندرتهِ فأبناءُ لبنانَ مثلاً لا يرَونَ للصنوبرِ من الكرامةِ والنفاسةِ ما يراهُ لهُ ابنُ نيويورك الذي لا يحظى بشيءٍ منهُ الاَّ قادماً من ألوفِ أميالٍ

وحدثَ أن داودَ أرسلتهُ والدتهُ الى المدينةِ بهمةٍ فشاهدَ في أحدِ المخازنِ المخصصةِ للحبوبِ رؤوساً من الصنوبرِ[1] فاشترى رأساً بنصفِ ريالٍ وعدَّ نفسهُ قد صفقَ صفقةً رابحةً[2] وعادَ مساءً الى المنزلِ بعدما انجزَ ما عهدتْ اليهِ امهُ ان يقومَ بهِ فعرضَ عليها ما كانَ من عملهِ ثم قال — قد اتيتُ بشيءٍ أظنُّ أنَّ إحضارهُ يستوجبُ سرورَكِ مني

وكانت والدتهُ وقتئذٍ في الحديقةِ تهتمُّ على جاري عادتها بالاشجارِ والمزروعاتِ فلمَّا وقعتْ كلمتهُ الاخيرةُ في مسمعها بسمتْ ثغراً وادارت اليهِ وجهاً منيراً بالدَّعة والحبِّ الوالديّ وقالت — انَّ انصرافَ فكرِكَ الى استحضارِ ما يوجبُ سروري هو سببٌ كافٍ لأن يفيضَ البهجةَ على قلبي لأنَّ اتجاهَ النيةِ

(١) راس الصنوبر ويدعوهُ البعض كوزاً فلهُ اسمان من باب الاستعارة لان ثمرة الصنوبر هي اشبه بالرأس البشري وباناء الشراب المسمَّى كوزاً (٢) كانوا قديماً يصفقُ المشتري يدهُ بيد البائع دلالةً على اتفاقهما وتراضيهما بالبضاعة والثمن

الى الإحسانِ إحسانٌ فأَرِني ما استجلبتَهُ

فدفعَ الى يدِها رأسَ الصنوبرِ الموضوعَ ضمنَ صوانٍ ورَقيٍّ وأَخبرَها انَّ في مُندَرجاتِ قُشورِهِ حبوباً ذاتَ غلافٍ صُلْبٍ في داخلِهِ جنىً من أَطيبِ ما عُرِفَ من الحُبوبِ . ورَجاها ان تَغرِسَ تلكَ الحُبوبَ في أَحدِ جوانبِ الحديقةِ لكي يكونَ عندَهم حرَجةٌ[1] صغيرةٌ من الصنوبر

فسُرَّت الوالدةُ برأْيهِ ثمَّ سأَلتهُ — بكم اشتريتَ هذا الرأْس

فاجاب — بثمنٍ زهيد — بنصفِ ريال

فقالت — أَوتعلَمُ ما هوَ ثمنُهُ في وطنِهِ

فاجاب — لا

فقالت — ما يُساويْ السنتَ الواحد

فعَضَّ داودُ على شفتهِ ندماً . اما كاترينُ فكانت تَسمعُ الحديثَ فأَحبَّت ان تُلقيَ كلمةً في المُباحثةِ فقالت — أَرأَيتِ يا أُمي كيفَ يتناوَلُ البائعونَ ثمنَ مبيعاتهم غالياً

فتصدَّت لها نقلا وقالت — شرطُ التجارةِ بيعُ الشيءِ بثمنٍ يُربي[2] على ثمنِ مُشتراهُ والاَّ فانَّ حالةَ التُّجارِ تسوءُ . وهذا الرأْسُ تعملُ لإيصالهِ الينا أَيادٍ كثيرةٌ فربَّ مُلْكٍ يتقاضى

(١) الحرش بلغة العامة (٢) يفوق

ثمنهُ فقاطفٌ يجنيهِ فعميلٌ يشتريهِ فشركةُ عرباتٍ تنقلهُ الى ثغرٍ فضريبةٌ تُدفعُ لإخراجهِ الى أرضٍ أجنبيةٍ عن تلكَ الديارِ اي إلينا فسفينةٌ تنقلهُ الى هذا الثغرِ فرسمٌ على إدخالهِ الى هذهِ الديارِ فتاجرٌ يخزنهُ معَ أمثالهِ ليبيعها بكمياتٍ كبيرةٍ فآخرُ يأخذُ منها الشيءَ بعدَ الشيءِ ليبيعَ منهُ افراداً ولكلِّ يدٍ من هذهِ الأيادي نفقاتٌ وهذهِ النفقاتُ تُستوردُ من هذا الرأسِ وامثالهِ فما هوَ إذنْ بذي ثمنٍ مرتفعٍ

فابتسمت اليصاباتُ لابنتها نقلا وقالت — صدقتِ يا نقلا في ما قلتِهِ فوصولُ هذا الرأسِ الينا من بلادهِ يمثّلُ حالةَ الغريبِ وما يُلاقي من الصعوباتِ والنفقاتِ الكثيرةِ فهوَ يكونُ مرتفعَ المكانةِ في أرضِ اغترابهِ متى كانَ لهُ ميزةٌ يردُ عنها شيءٌ نافعٌ. كما أنهُ يعلّمنا ان الشيءَ الذي في بعضِ الاقاليمِ سهلُ التناولِ هوَ نفسهُ في أقاليمَ أخرى لا ينالُ الاَّ بعنايةٍ جزيلةٍ واهتمامٍ عظيمٍ وسعيٍ كثيرينَ فيجبُ ان لا نزدريَ بالشيءِ لانهُ بسيطٌ بل علينا ان نمعنَ نظراً في الوسائلِ العديدةِ التي اوصلتْ ذاكَ الشيءَ الينا فحصلنا عليهِ وبذلكَ النظرِ نعرفُ ما شأنهُ الحقيقيُّ

ويعلّمنا ايضاً أن الاغترابَ يكونُ مفيداً متى كانتِ الوُجهةُ المقصودةُ قابلةً لإعزازِ الميزةِ التي تحلّى بها المتغرّبُ فهذا الرأسُ جيء به من الشرقِ إمّا من سوريا او من ايطاليا وهناك بلادٌ كثُرت فيها موادُّ القُوتِ على السُّكّانِ فرخُصت وهنا بلادٌ كثُرت بها الناسُ وقلّت موادُّ القُوتِ الحاصلةُ من ارضِها فغلَت . وهناك وطنٌ فقيرٌ وهنا وطنٌ غنيٌّ فلو لم يكنِ الثّمنُ الفاحشُ مألوفَ البذلِ عندنا والمواردُ الارتزاقيّةُ غزيرةً لدينا لما صادفَ استجلابُهُ الفائدةَ المطلوبةَ ولما كانَ المشتري بعدَ بذلِهِ الثمنَ الفاحشَ يرى الحُصولَ عليهِ مغنماً فلو أُرسلَ الى كاليفورنيا لما أصابَ مُشترياً بذاكَ الثمنِ الكبيرِ ولا بنصفِهِ لأنّ الصنوبرَ هناكَ كثيرٌ بل ان ذاكَ الاقليمَ أشبهُ بسوريا وبايطاليا بحاصلاتهِ وهوائهِ ومناظرِهِ

وبعدَ أن اكملتِ السيدةُ اليصاباتُ هذهِ الكلمةَ النافعةَ قال يوسف — يا والدتي اذا كانَ هذا الثمرُ رخيصاً بحدِّ نفسهِ وغالياً بالنسبةِ الى مدينتنا أفليسَ من الحكمةِ أن نتّخذَ من العنايةِ بزرعِ شجرِهِ وسيلةً للاكتسابِ وهذهِ حديقتُنا متّسعةٌ لعشراتِ الشجراتِ . فتعقّبتهُ نقلا قائلةً — صدقتَ يا اخي ان حديقتَنا متّسعةٌ لعشراتِ الشجراتِ ولكن ليستِ الاشجارُ كلُّها

تنمو فيها . أنسيتَ قولَ والدتنا أنَّ عواملَ نموِّ الشجرِ — ملائمةُ التُّربةِ . والاهتمامُ الخصوصيُّ والوجودُ الصِّنْفيَّ — فلعلَّ تربتَنا لا يعيشُ فيها هذا الصنفُ من الشجر

فلمَّا اكملَت نقلا كلمتَها حوَّلَ يوسفُ نظرَهُ الى والدتِهِ ليرى تأثيرَ جوابِ شقيقتِهِ فرأى منها إشارةَ الموافقةِ ثمَّ قالت — اصابت نقلا بما ذكرت . فهل تعلمونَ ماذا تعلِّمُنا الطبيعةُ بهذا ؟ انها تعلِّمُنا أنَّ اللهَ قسمَ خيراتِهِ في أنحاءِ المسكونةِ فاعطى كلَّ صقعٍ استعداداً لإنماءِ صنفٍ من الاشجارِ . ففي كلِّ بلادٍ خيراتٌ تختلفُ عن خيراتِ بلادٍ أُخرى . وهذا مثالٌ جليٌّ يعلِّمُنا انَّ عقولَ الناسِ مقتبلةٌ آراءً مختلفةً تأتي بنتائجَ مختلفةٍ طبعاً وهذهِ النتائجُ تكونُ مقبولةً من الآخرينَ بقدرِ ما يردُ عنها من فائدتِهم ومسرَّتِهم

فانَّ تعدُّدَ أصنافِ الأشجارِ يطلبُ تنوُّعَ التُّربةِ فبعضُها يحيا في الأرضِ الرَّمْليَّةِ ولا يحيا في سواها وبعضٌ يعيشُ حيثُ لا ماءَ فان جُلِبَ اليهِ الماءُ أجداهُ أذًى لا نفعاً . والبعضُ لا يعيشُ في أرضٍ ذاتِ رملٍ ولا يحيا الاَّ حيثُ يكثرُ الماءُ . وانَّ في اختلافِ ملائمةِ الاماكنِ للأشجارِ

وملائمة الأشجار للأماكن أنموذجات لأمور كثيرة تكشف حقائق عديدة لها علاقة بحياة البشر منها

١) ليس من العدل أن يشكو أحد منا من أنه في محيط غزير النعمة وهو محروم النجاح فقد يكون ذاك المحيط غير ملائم له كما لا يناسب بعض أصناف الشجر ان يكون مغرسه في ارض ليست ذات رمل

٢) يجب ان لا يتذمر احد من حكمة الخالق اذا رأى أن النجاح لا يصاحب اعماله فلعله يغرس تعبه في أرض غير صالحة لإحياء ما يغرسه فلذلك يذهب تعبه سدى ولا يجني منه ثمراً وما من ملام على الأرض ولا على الغرس ولا على الله لأنه أعطانا بصيرة لنميز بين المناسب والغير المناسب. فان كان عند ناريب او جهل فلنجرب. والتجربة كافلة بكشف القناع عن محيا الحقيقة. على أن التجربة مشروطة بأن تكون بأعراض حاجات الحياة وفي نهز الفراغ لا بأن نختار لها قوام العمل واوقات الجد للارتزاق القانوني

٣) يجب ان نعلم أن الله تعالى خلق كل شيء حسناً واعد له سبل النمو والارتقاء فحول كل غرس أرضاً تناسبه

ولكنَّ المشيئةَ البشريَّةَ تَنقُلُ الأَشياءَ من مَواضِعِها فيَحدُثُ ما يَحدُثُ من فَقدِ النَجاح . فاذا استُعمِلَتِ البصيرةُ النيّرةُ كما يجبُ نَجَمت زيادةُ النفعِ وانتفاءُ الضررِ . فكلُّ ما هو حَسَنٌ وجيّدٌ يجبُ ان نَنسبَهُ الى حِكمةِ اللهِ ورحمتِهِ وكلُّ ما ليسَ بحسَنٍ ولا بجيّدٍ يجبُ ان نُرجِعَهُ الى جَهلِ الإِنسانِ وسوءِ تَصرُّفِهِ وعلينا ان نَستخلِصَ من ذٰلكَ وُجوبَ التعلُّقِ اشدَّ التعلُّقِ باللهِ وعدمَ الثقةِ بمعرفتِنا متَّبعينَ الوصايا الالهيَّةَ بضمير نقيّ

ورأَت اليصاباتُ أَنها أَطالت في الإِرشادِ فقالت لا يَزالُ عِندي اشياءُ كثيرةٌ أَرويها لكم نواجِمَ عن هذا الرأْسِ فاحتفِظْ عليهِ يا داودُ واضِعاً إِيّاهُ في كأْسٍ بلّوريَّةٍ مما تَجِدُهُ في رُدهةِ الاستقبالِ وهيّأَ بنا للعملِ في بَذرِ هذهِ البِذارِ التي ارسلَها والدُكم لكي نَزرَعَها

فاسرعَ داودُ ونزعَ ثيابَهُ الجميلةَ ووضعَ الرأْسَ كما اوعزت والدتُهُ التي كانت تعلّمُ باعمالِها اضعافَ ما تعلّمُهُ باقوالِها ثم جاءَ إِلى العَملِ حتى اشارتِ الوالدةُ ان يكُفُّوا فكفُّوا

الفصل التاسع

التعاضد مدعاة النجاح

الحاجة رفيقة الحداثة . براعة الطلب . مُناقشة ادبية . شبه بين رأس الصبور والفوائد المكتومة . اتحاد العائلة يداً . اذية الفتنة . اللسان الغريب . الحقائق تحت اغطية . نتائج الاعمال متعددة . استحلال الشيء أمر والاستفادة منهُ امرٌ آخر . استخدام العنف يُذهب التعب السابق ضياعاً . وجود الشيء في مبدإهِ يدل عَلَى ما سيكون في نِهايته . يجب العناية بالطفل ليكون فيما بعد رجلاً عظيماً . لا يستطاع نزع كل متلبسات الحقيقة عنها لئلا تذوي ولا تنمو . لا نحتقر الشيء لحالتهِ وهو صغير بل علينا ان نتأمل في ما سيكون شأنهُ متى كبر . الرأس البشري لا يُعرَف امتلاؤهُ وفراغهُ من الحكمة الا بعد التجربة . البطيء النمو طويل امد اعطاء المواسم ايضاً اي انهُ يعطي مواسم عديدة

« ضعوا من الآنَ نصب اعينكم أنكم مدعوُّون للجهادِ العظيم في هذهِ الحياةِ الدنيا »

يا بَنِيَّ العِزازَ من سارَ هَدْيًا طالَ كَفَّاهُ أَطيبَ الثَّمَراتِ
ورأَى كلَّما حوتْ هٰذهِ الدُّنيا نَعيماً وأَنعُماً طيِّباتِ
والسبيلُ الهادي اطِّراحُ الأَماني واجتنابُ الغرورِ والغَفلاتِ
واعتبارُ الحياةِ دارَ شقاءٍ واجتهادٍ في كامِلِ الأَوقاتِ

فضَعوا نَصبَ أَعيُنِ العقلِ مَرْمى ... وأُقصُدوهُ بنافِذِ الرَّميَاتِ

انَّ ربَّ الورى الحكيمَ دعانا ... للجِهادِ العظيمِ في ذي الحياةِ

ولَمَن أَحسنَ التصرُّفَ بُشْرى ... بنَعيمِ الخُلودِ بعدَ المَماتِ

ذاكَ مَغنى مَلائكِ النُّورِ بالتَّسْبيحِ يُعلونَ أَرخَمَ الأَصواتِ

وصفوفُ الابرارِ من أَنبياءٍ ... وشيوخٍ ونِسوةٍ طاهراتِ

كُلُّهم يكتَسونَ أَثوابَ نورٍ ... ويَحلُّونَ مَوطِنَ الرَّحماتِ

فبتِلكَ الدارِ ارتياحٌ وأَمَّا ... دارُنا ذي فمَعهَدُ المُزْعِجاتِ

من سجايا البشرِ التطلُّعُ الى ما يُوعَدونَ بهِ سواءٌ كان عطيَّةً ماليَّةً او خبراً والاولادُ اشدُّ تشوُّقاً لأَنَّ اللَّجاجةَ في الطَّلَبِ تُصاحبُ الحَداثةَ فلم يمرَّ على أُولئكَ الأَولادِ ليلٌ فنهارٌ فآنَ لهم ان يَنحَدِروا الى الحديقةِ حتى كانَ صبرُهم قد عِيلَ وقلوبُهم قبلَ مَسامعِهم منصرفةً الى اُستِطلاعِ ما قالتْ لهم والدتُهم أَنهُ مخبوءٌ في صدرِها من الفوائدِ التي ستُفيضُها عليهم بواسطةِ رأسِ الصَّنوبرِ

وكانَ من المبادىءِ التي لقَّنتهم إِيَّاها ان يَدَعوا الإِلحاحَ في الطَّلَبِ فلم يكن لهم ان يَذكُروا سابقَ الوعدِ صَراحةً ولكنَّهم كانوا قد اهتدوا إِلى طريقةِ التِماسِ الحُصولِ على ما يَجنَحونَ

اليهِ من بابِ التَّلميحِ دونَ التصريحِ . وكانتِ السيدةُ اليصاباتُ قد ادركتِ المسلكَ الذي أَخذوا ينهجونهُ فلا تزجرُهم عنهُ واذا رأَت لهم براعةً في الطَّلبِ تُثني عليهم لعلمِها انَّ مصالحَ الحياةِ تدعوهم في مُستقبلِ الأَيامِ الى طرقِ هذا المنهجِ كثيراً ومَن اُهتدى الى ابوابهِ منذُ حداثتهِ كانَ أَعرفَ بالدُّخولِ الى مخادعِ القلبِ وتناوُلِ المُلتمَسِ على اكرمِ الوجوهِ

فتظاهرتْ في اليومِ التالي أَنَّ ذاكَ الوعدَ قد غابَ عنها لترى ما يصدرُ منهم تأَدُّباً في التذكيرِ واستنجازِ الوعدِ ولتتأَكَّدَ مقدارَ تعطُّشِهم الى الاستقاءِ من ينبوعِ إِرشاداتِها الأَدبيَّةِ فلمَّا هبطَت بهم الى الحديقةِ اوعزَت الى كُلٍّ منهم أَن يبدأَ بعملٍ وشرعت ايضاً تعملُ

فلمَّا انتهوا من العملِ أَو كادوا كانَ شيءٌ من النَّورِ قد سقطَ على شعرِ كاترينَ الجميلِ فاسرعت نقلا اليها وقد أَنجزت عملَها فقالت لها — مَهْلاً فانَّ لهذا النَّورِ على رأْسكِ مظهراً جميلاً فقفي لكي أَجعلَ تنسيقهُ مستكملَ الانتظامِ . ثمَّ اصلحَت ما كانَ مُختلاً حتى صارَ النَّورُ مظهرَ إِكليلٍ تامِّ الاستدارةِ بديعِ الصورة

ورأَتهُ حنَّةُ فأَحبَّت ان يكونَ لها فاقتربت من كاترينَ وقالت لها — ما هذا يا اختي دعيني أَمُسُّهُ فأَرى كيف أَنتظم

وكانَ داودُ قريباً منهما فالتفتَ الى كاترينَ وقال — لا تنسَيْ موضوعَ عِظَةِ الأَحدِ الماضي « تمسَّكْ بما عِندَكَ لئلاَّ يأْخُذَ أَحدٌ إِكليلَك » (رؤيا ٣ : ١١) ففطِنت كاترينُ لِما يُشيرُ اليهِ داودُ وقالت لحنَّة — يُوضَعُ الإِكليلُ لِتراهُ العينُ لا لِتلمِسَهُ اليدُ فانظُريهِ ولا تلمُسيهِ

فقالت ثقلا — يا حنةُ صدقتْ كاترينُ فانَّ الإِكليلَ للرأْسِ يزدانُ بزهراتهِ لا لليدِ تَنثرُ حلَقاتهِ . ألا ترَينَ والدتنا قد رفعت من بينِ أَيدينا رأْسَ الصنوبرِ لأَنهُ لا يَحسُنُ بهِ ان يكونَ أُلعوبةً بينَ الأَيدي

فقالَ داودُ — إِنَّما رفَعَتهُ ليكونَ وجودُهُ مذكِّراً بما تَضمَّنهُ في تركيبِهِ من الفوائدِ وقد تَنفَعُ الذِكرى

فضحكتِ الوالدةُ وكانت قد اكملت عملَها فقالت — تذكيرُكم لي بوعدي حَسَنٌ لَدَيَّ فاغسلوا أَوجهَكم وأَيديكم واطرَحوا موادِعَ العَمَلِ وتعالَوا اليَّ . فأَسرعَ الاولادُ الى أَنابيبِ الماءِ وغسلوا أَوجُهَهم وأَيديَهم وانتظموا ككواكبَ زاهرةٍ تُحيطُ

ببدرٍ مُشرقِ الأنوارِ . فاوعزتْ الى داودَ ان يأتيها بالرأسِ ففعلَ وحينئذٍ نطقتْ بما يأتي: أُنظُروا كيفَ تراكُبُ القشورِ في هذا الرأسِ متلازًّا وصلبًا كأنهُ تراكُبُ صخورٍ يعلو بعضُها بعضاً فلا تقوى اليدُ بقوَّتها مهما عظُمت على الفصلِ بينَ هذهِ القشورِ لتتمكَّنَ من استخراجِ الثمرَ

فقالَ يوسف — فبأيَّةِ طريقةٍ إذَن يستخرجُ ما فيها منَ الثمرِ فاجابت — أُنظُر يا ولدي الطريقةَ . ثمَّ مضت الى الميقدِ الحديديِّ الموضوعِ في الطبقِ الأوَّلِ من المنزلِ وكانَ متَّقداً بالفحمِ الحجريِّ فطرحتِ الرأسَ على نارهِ وأخذت تتعاهدهُ تقليباً من جانبٍ الى جانبٍ حتى اكتسى مظهرهُ احمراراً فاستخرجتهُ وقالت

— انَّ حرارةَ النارِ ألانت أطرافَ القشورِ فضعُفَ تقلصُها وتركُّبُها فصارَ من المستسهلِ تفريقُها وانتزاعُ ما في جوفِها ومن هذا لنا حقائقُ عديدةٌ أذكرُ لكم منها ما ياتي

اولاً : إنَّ العائلةَ الواحدةَ المتراصَّةَ الأيدي وراءَ احتيازِ الكرامةِ تحوزُ في قلبِها النعمةَ الجليلةَ الشأنِ ولا تستطيعُ اليدُ الغاشيةُ أن تختلسَ نعمتَها لتضافرِ أفرادِها على المصلحةِ الواحدةِ . وتتعذَّرُ أذيةُ الفردِ الواحدِ من تلكَ العائلةِ لأنَّ اتصالهُ

بأُخوانِهِ يجعلُ الضغطَ عليهِ غيرَ مؤثّرٍ بهِ للتناصرِ الرابطِ المجموعَ بفردِهِ والفردَ بمجموعِهِ كما أنّنا لو أردنا ان نكسرَ هذا باليدِ كسراً لكانَ من المتعذّرِ ان نُصيبَ من قُشورِهِ مأرَبًا . فلمّا اندلعَ لِسانُ النارِ عليهِ أضعفَ قُوى تماسُكِ قُشورِهِ وتلازُمِها فهانَ ما كانَ عسيراً وكذلكَ لِسانُ الفتنةِ الذي هوَ أشدُّ إلهاباً للقلوبِ من النارِ واعظمُ تأثيراً عليها فانّهُ متى أصابَ منَ العائلةِ موضعاً أضعفَ قُوى تناصُرِها وفتَّ في عضُدِ تآلُفِها وفرّقَ آراءَها فيهونُ على اليدِ الغاشيةِ استخلاصُ نِعمتِها من قلبِ مجموعِها وتُتركُ أفرادُها طُعمةً للهوانِ والشقاءِ .

فاحذروا إذن من كلِّ لِسانٍ غريبٍ لهُ اشتعالُ النارِ في الحطبِ فما هوَ الاّ بلاءٌ يبغي حلَّ تناصُرِكم وإزالةَ النعمةِ عنكم وتأكّدوا من مِثالِ وضعِ الرأسِ على النارِ انّ أُمنيّةَ ذاكَ الغريبِ هي استخراجُ ما بقلوبِكم من نعمةِ الوِفاقِ التي تُخوّلُكم الكرامةَ الجُلّى فيحصلُ هوَ على الفائدةِ التي يُريدُها واما انتم فتبيتونَ بلا كرامةٍ ولا شأنٍ

ثانياً : تأكّدوا أنّ الحقائقَ مخبوءةٌ تحتَ أغطيةٍ متراصّةٍ فلا تتوصّلُ اليدُ اليها الاّ بعناءٍ وإشغالِ الفكرةِ التي يجبُ ان تتوقّدَ كالنارِ الملتهبةِ وتندفعَ على الموانعِ بقوّةٍ عقليّةٍ تحلُّها حلاًّ

فيُستطاعَ حينئذٍ معَ الاهتمامِ والتروّي الحصولُ على الحقيقةِ. اذن لا تحسبوا انَّ الطبيعةَ من تلقاءِ نفسِها تُتيحُ لكم عفواً مُجتَنى ما تطلبونَهُ فعليكم ان تعلَموا أنكم مدعوونَ الى القيامِ بمشقَّتينِ الواحدة عقلية والأُخرى جسدية لأنَّ اللهَ عزَّوجلَّ منذُ وضعَ على الانسانِ أن يجتنيَ خبزَهُ بعرقِ جبينهِ جعلَ الأرضَ تُنبتُ حسكاً وشوكاً فلا ارتزاقَ منها الاَّ بالعملِ الشاقِّ عقلاً وجسداً. فضعوا منَ الآنَ نصبَ أعينكم أنَّكم مدعوُّونَ للجهادِ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا وتأهَّبوا منَ الآنَ للعملِ فانَّ تمرُّنكم وانتم صغارٌ على المتاعبِ يُمكِّنكم في كِبَرِكم إن شاءَ اللهُ منَ القيامِ بأعمالِكم قياماً مشكوراً

ثالثاً: أُنظروا انَّ بعضَ طباقِ القشورِ يحوي حبَّتينِ معاً وبعضهُ يحوي حبَّةً واحدةً وبعضهُ وهو القليلُ النادرُ لا يحوي شيئاً فكلُّ ذلكَ يمثِّلُ لنا عواقبَ الأعمالِ فإنَّ بعضَها يثمرُ لصاحبهِ فائدتينِ ماديّةً وأدبيةً معاً والبعضَ يثمرُ فائدةً واحدةً اما ماديةً او ادبيةً والبعضَ لا ثمرَ لهُ الاَّ ذهابُ التعبِ ضياعاً وكما أنَّا نرى السرورَ بما يحوي الحبَّتينِ اتمَّ فليكنْ سرورُنا بما ينجمُ عنهُ الفائدتانِ اعظمَ فيجبُ ان لا نحصرَ سعينا في نيلِ الفائدةِ الماديَّةِ المحضةِ كأننا تماثيلُ لها وجودٌ خارجيٌّ ولا

رُوحَ فيها او كأَنَّنا حيواناتٌ لا تَنفكُّ عن طلبِ المحسوساتِ المُجرَّدةِ كما يجبُ ان لا نَنقطعَ البتَّةَ عن الماديَّاتِ كأَننا أَرواحٌ فلا تطلُبُ مأْكلاً ومشرَبًا ومسكنًا فانَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَذكُرُ كما يقولُ داودُ أَننا «لحمٌ ودَمٌ» فبالأَولى ان نَذكُرَ نحنُ ذٰلكَ

رابعًا: أُنظروا انَّ حبَّةَ الثَّمرِ بعدَ كلِّ عنايةٍ بانتزاعها والحُصولِ عليها ليست صالحةً للتناوُلِ لأَنَّ غِطاءً صُلبًا يكسوها وهذا يُرينا أَننا لا نَحصلُ على الغايةِ المُشتهاةِ بمجرَّدِ حلِّ روابطِها القويَّةِ بل نحنُ مُحتاجونَ بعدئذٍ الى مُواصلةِ العَملِ فلا تَحسبوا أَنَّ مجرَّدَ الحصولِ عَلَى ثمرَةِ أَتعابِنا نتناوَلُها كما نَشاءُ وعلى أَفضلِ وَجهٍ مُناسبٍ واعلَموا ان مُواصلةَ العَملِ بعدَئذٍ واجبٌ لنُعِدَّ الثمرَةَ على الوَجهِ الذي يُمكِنُ تناوُلُها بهِ فالامتلاكُ شيءٌ والاستفادَةُ منَ الامتلاكِ شيءٌ آخر

خامسًا: أُنظروا (قالت وكسرت بعضَ القُلوبِ فكانَ بينَها المملوءُ والفارغُ) أَنَّ بعضَ القلوبِ فارغةٌ وهذا مثالٌ يُرينا أَنَّ كثيرًا ما نَسعى ونُجهِدُ جسدًا وعقلاً فنُحرِزُ ثمرَةَ تعبِنا في غِطاءٍ منَ الصروفِ المُرافقةِ اعمالَنا لا يَظهرُ ما وراءَهُ فاذا زالَ الغِطاءُ ظهرَ انَّ تلكَ الثمرةَ ليست الاَّ ثمرةً وهميَّةً.

فان حدثَ ان يَقعَ في نَصيبِ أَحدٍ منكم ذٰلكَ فلا يملإِ الحنقُ صدرَهُ ولا يمتلكِ اليأسُ قلبَهُ وليعلَمْ أَنَّ ذٰلك كثيرُ الوقوعِ. وأَنَّ العقلاءَ لا تنكسرُ عزائمُهم اذا عارضتهم معاكساتُ الزمان

سادساً: أُنظروا أَنَّ بعضَ القلوبِ قد سُحقَ لُبابُهُ معَ انسحاقِ قشورهِ فذهبت فائدتهُ وهٰذا يمثّلُ لنا حالةَ الأَخرقِ الذي يتعبُ حتى الشقاء ليحصلَ على ثمرةِ تعبهِ فاذا وصلَ اليها وارادَ استخراجَ لُبابها من قشورها حملهُ فقدانُ النَّروّي ان يتخذَ من الضغطِ قوّةً تنيفُ على القدرِ الكافي فيحرمَ اللُّبابَ ويعودُ خاسراً فعلينا أَن نتبعَ الحكمةَ من بدءِ عملنا الى منتهاهُ ولنعلَمْ أَنَّ ذهابَ التعبِ سدًى يقعُ لنا حينما نخرجُ عن خُطَّةِ التبصُّرِ ولو كانت آمالُنا قد تيسّرت حصولاً لنا ولم يبقَ الا استخراجها من أَغراضها الملاصقةِ جوهرَها

سابعاً: أُنظروا لُبابَ الثمرةِ وتأَمَّلوا فيهِ فقد حوى مثالاً لشجرةٍ كاملةٍ ذاتِ ساقٍ وأَطرافٍ متفرّعةِ الأَغصانِ فهذا يمثّلُ لنا أَنَّ الطفلَ مستعدٌّ منذُ صغرهِ أَن يكونَ رجلاً عظيماً ينمو ببركةِ اللهِ فيكونُ علّةَ وُجودِ عائلةٍ كبيرةٍ ذاتَ أَغصانٍ تتفرَّعُ عنها العيالُ فيجبُ اذن ان لا نحتقرَ احداً من إِخوتنا في البشريةِ لأَننا لا نعرفُ أَيةَ الحُبوبِ هيَ التي ستُطرَحُ في

الأَرضِ وأَيَّتُها ستنمو منها وتجودُ ثماراً . وكذلكَ لا نعرفُ أَيَّ فردٍ من إخوتِنا سيَزكو ثمراً ويكونُ من بنيهِ نُجباءُ يقضونَ دُيونَ والديهم ويَدينونَ الوُجودَ البشريَّ بفوائدَ ومُساعداتٍ عظيمةٍ وعديدة

ثامناً : اذا كانَ هذا القلبُ الصغيرُ يُصوّرُ لنا شجرةً كبيرةً في مُستقبَلِ الأَيّامِ أَفما تَظُنُّونَ أَنَّ الطِّفلَ الصغيرَ يصوّرُ لنا الرَّجلَ الكبيرَ في مُستقبَلِ عمرِهِ . ولذلكَ يجبُ ان تَهتَمُّوا منَ الآنَ باكتِسابِ الأَخلاقِ الكريمةِ التي تنمو فيكم كما تنمو هذهِ الجرثومةُ في أَرضٍ صالحةٍ لها . فالكبيرُ لا يُولَدُ كبيراً بل يتدرَّجُ في الارتقاءِ بحسبِ استعدادِهِ الطبيعيِّ وبتأْثيرِ ما يُحيطُ بهِ منِ عواملِ التَّثقيف

تاسعاً : أُنظروا انَّ الجُرثومةَ[1] الشجريَّةَ حاويةٌ مَظهرَ ساقِ الشجرةِ وأَطرافِها دُونَ ما يعرِضُ عليها بعدَئذٍ من اللِّحاءِ والوَرَقِ . فهذا يمثِّلُ لنا ان تصوُّرَ كلِّ أَمرٍ يكونُ أَوَّلاً باعضائهِ الرئيسيَّةِ ثمَّ لا غِنى لهُ عن توابعِهِ التي هيَ ظواهرُهُ الخارجيَّةُ ولكنَّ الحياةَ تتعذَّرُ خُلُوًّا منها . لأَنَّ الشجرةَ متى أُخليت من أَوراقِها وقُشورِها حُرِمَتِ النموَّ بل البقاءَ فتَيبَسُ

(١) الاصل

ولا يُرجَى منها ثمرٌ . فتعلَّموا من هٰذا انَّ الحقيقةَ يجبُ أَن تُوضعَ في غلافٍ يناسبُها ويلازِمُها واذا رأَيتمُ الغلافَ يقضي عليكم بمشقَّةٍ فلا تتذمَّروا لأنَّ النجاحَ مستقرٌّ في باطنِهِ والعاقلُ لا يتضجَّرُ من مزاولةِ السعيِ للحُصولِ على مُلتمَسِهِ ولا تنقبضُ يداهُ عن العملِ بل يلزَمُهُ بحكمةٍ لإدراكِ المَرجوّ

عاشرًا : انَّ شجرَ الصنوبرِ صغيرُ الجُرثومةِ جدًّا لكنَّهُ عظيمُ النموِّ الى انهُ ينتظِمُ في عِدادِ أَطولِ الأَشجارِ ارتفاعًا . وهٰذا أُنموذجٌ يُفيدُنا انَّ الشيءَ لا يحتقَرُ في مصدرِ وُجودِهِ بل علينا ان نُمعِنَ نظرًا بهِ فلعلَّهُ يكونُ في المُستقبلِ من أَكبرِ الاشياءِ خَطارةً ونموًّا

حاديَ عشرَ : انَّ الرأْسَ الصنوبريَّ يُمثِّلُ لنا الرأْسَ البشريَّ فكما انَّ ثمارَهُ مُستبطِنةٌ فيهِ كذٰلكَ الأَفكارُ البشريَّةُ مُستبطِنةٌ في الرأْسِ . وحبوبُ الصنوبرِ تحتَ غِشاءٍ فهيَ بينَ فارغةٍ وملآنةٍ وكذٰلكَ الأَفكارُ البشريَّةُ تحتَ غطاءٍ . والتجربةُ تَفحَصُ حقيقتَها فيُعرَفُ الفارغُ والمملوءُ . والرؤُوسُ الصنوبريَّةُ تتماثلُ نظرًا وتتفاوتُ جودةً بكثرةِ الثمارِ وكذٰلكَ الرؤُوسُ البشريَّةُ تتماثلُ منظرًا وبينها التفاوتُ العظيمُ فكم فردٍ تُعدُّ

حياتُهُ أَثمنَ من حياةِ الوفٍ وكم جماهيرَ ليست لهم منفعةُ فرد

وكلمةُ الختامِ التي أُحبُّ أَنْ تُحلوها المنزلَ الأَعلى في قلوبكم هيَ انَّ جرثومةَ الصنوبرِ طويلةُ زمنِ النموّ فتُعمرُ ادواراً ولكنَّها بطيئةُ النموّ أيضاً فهيَ تمثّلُ لنا الأَعمالَ العظيمةَ التي يُستفادُ منها فوائدُ كثيرةٌ في أَزمنةٍ طويلةٍ وتُوضحُ بدليلِ القياسِ أَنها بطيئةُ النموّ لا تُعطي ثمارَها بسرعةٍ. فاذا رأَيتم عملاً نافعاً لا يُرجى منهُ النفعُ العاجلُ فلا تذُمّوهُ وليكنْ عندكم من عدّةِ الصبرِ والانتظارِ ما يليقُ بكلّ حكيمٍ وعليكم قبلَ الشروعِ بهِ أَن تزِنُوا قُواكم فان كانتِ الدواعي المعاشيةُ لا تسمحُ لكم ان تنتظروا جنيهُ فاعدِلوا الى ما هوَ أَقربُ جدوى. وامنحوا ذاكَ العملَ النافعَ ما تكتسبونهُ من ساعاتِ الفراغِ تسعدوا عاقبةً ان شاءَ اللهُ

ثمَّ وزّعت عليهم قلوبَ الصنوبرِ حِصصاً فتناولوها بابتهاجٍ وعادوا الى المنزلِ مسرورين

الفصل العاشر

كل الاشياء تعمل معاً للخير (رو ٨ : ٢٨)

سياج الحدائق العمومي في نيويورك . الاولاد جنود تحت امرة آبائهم . ما هو اعزُّ شيءٍ عند الام . مقدار تعب الابوين لاجل اولادهم مخالفة المألوف اذا صدرت عن العاقل كانت عن مقصدٍ معيَّن . رجل الحكومة عرضة لنقمة الاشرار . كيف يستطاع تحويل شرّ الشرير الى خير . الحكومة سياج الأمة . لماذا خلق الله الاشرار . لماذا وضعت الحكومة قصاصاتها

« انَّ الخوفَ اشدُّ وقوعاً على ما هو مصدرُ الأمن .. وكلّ امرٍ تُريدون الحصولَ عليهِ يجب ان تطرقوهُ من بابهِ المعيَّن »

إنْ رأَيتُم طَرَفَ الزَّمانِ غَفُولا ... واللَّيالي تُحقِّقُ المأمولا
فاحذَروا ان يَغُرَّكم ذاكَ حتَّى ... تَنجَعُوا مَطلَباً مِحالاً حُصولا (١)
لا تقولوا إنَّا بدارِ أَمانٍ ... ونرى الدَّهرَ للأَماني مُنيلا
انَّ اقوى خَوفٍ يكونَ على ما ... هوَ يَجبُو (٢) الأَمانَ والتأْميلا
وإِذا ما اردتمُ نيلَ سُؤْلٍ ... فاطلُبوهُ صبيحةً وأَصيلا (٣)
واقصدُوهُ من بابهِ تجدوهُ ... فانتهاجُ الصَّوابِ أَهدى سَبيلا

(١) تنجعوا تطلبوا ومحالاً ممتنعاً (٢) يهَبُ (٣) مساءً

واجنحوا[١] عن سلوكِ ماليسَ مشروعاً فهذا هيهاتِ يروي غليلا[٢]

يُحيطُ بالحدائقِ البيتيَّةِ في نيويورك شريطٌ يطوّقُ اطرافها مارًّا على دعائمَ خشبيَّةٍ تُركَزُ في الأرضِ وربما غرسوا على خطِّ الشريطِ نوعاً من الأشجارِ[٣] يكونُ متساويَ العلوّ لهُ عرضُ نصفِ مترٍ فتبتهجُ العينُ بمنظرِهِ المتناسقِ ولا سيَّما حينما تهبُّ عليهِ النسماتُ. وهذا النوعُ لا ثمرَ لهُ يؤكلُ

وكانت رغبةُ البنينَ منصرفةً الى التماسِ تطويقِ الحديقةِ بهذا النوعِ الجميلِ إلاَّ أنَّ الوالدةَ رأتِ الأولى ان تختارَ نوعاً آخر شائكاً ينمو الى علوِّ القامةِ فأتت بهِ وكانت تدرّبُ بنيها على غرسِهِ فأذعنوا لمشيئتِها وهم يرونَ عجباً لخروجِها عن المألوفِ ثم جلسوا للمحادثةِ الشهيَّةِ بعدَ أن أنجزوا عملَ نهارِهم المعتادَ فقالت ثقلا لداود — كيفَ رأيتَ عملَك هذا اليوم

فأجابَ — أنا مسرورٌ بهِ لأنَّ والدتنا أظهرت رضىً عنهُ

فقالت — أتعني أنَّكَ مكتفٍ برضى والدتِكَ دونَ إدراكِ السرِّ في العملِ او أنكَ غيرُ راضٍ عنهُ

فاجاب معترضاً — انني أريدُ ان أبيّنَ أنَّ رضايَ بعضُ

(١) ميلوا (٢) عطشاً (٣) هذا النوع يدعونه في سوريا مرجاناً

رضى والدتنا فلماذا تُريدينَ ان تَستَخرِجي من كلمتي معنى لم أُرِدْهُ

فقالت — أُريدُ ذلكَ لتنفيَ صَراحةً ما حواهُ قولُكَ ضمناً

فقالَ داودُ — اننا في حالتنا الحاضرةِ نمثّلُ جنوداً تحتَ أَمرةِ القائدِ اما هٰكذا قالَ لنا والدُنا لمَّا شرحَ لنا قولَ الرسولِ بولسَ « اما انت فاحتَملِ المَشقّاتِ كجُنْدِيٍّ امينٍ »(٢ تيم ٢:٣) وقد علّمنا انَّ الواجبَ الأَوَّلَ على الجُندِيِّ هوَ إجراءُ ما يأمُرُهُ القائدُ بهِ بكل أمانةٍ . فبسُرورٍ أُظهِرُ أَنني قمتُ بواجبي كالجُنديِّ الأَمينِ نالَ على نشاطهِ رضى قائدِهِ

وكانت اليصاباتُ تَسمعُ حوارَ ابنيها بانتباهٍ تامٍّ لترى كيفَ يتصرَّفانِ في طلبِهما وأَدركت أَنَّ الفتى وقفَ موقفَ الدِفاعِ بكلِّ حِذقٍ فلم يُستَخلَصْ من أَقوالهِ ما يُعَدُّ مأْخذاً عليهِ ووسيلةً للقولِ أَنهُ متذمّرٌ من عملهِ ما لا يُدرِكُ لهُ سِرًّا مع انهُ يطلُبُ ضمناً جلاءَ السرِّ فراقتها جودةُ الأُسلوبِ الذي تَخيّرَهُ ورأَت من المُفيدِ ان تستجيبَ سؤلَهُ فبسمت ثغراً وقالت

— اسرُّ بكَ يا ابني لأَنكَ تغتنمُ كلَّ سانحةٍ لكي تُعلِنَ لي حبَّكَ وطاعتَكَ وهما احبُّ الاشياءِ اليَّ واكرمُ ثمرٍ ارجو

اقتطافهُ من أشجارِ أعمالِكم في حقلِ هذهِ الدُّنيا وبما أنكَ الأرشدُ بينَ أشقّائكَ[1] وشقيقاتكَ والقُدوةُ المُثلى لهم فانتَ ولا شكَّ تزيدُني ثقةً بأنَّ مراحمَ الربِّ هيّأتْ لوالديكَ مستقبلاً كريماً بالعائلةِ[2] التي رزقتهما إيّاها — انَّ اباكم يحرمُ عينيهِ الوسنَ[3] في سبيلِ تحصيلِ حاجاتِ الحياةِ لنا . وانا أقضي نهاري وليلي في الاهتمامِ بكم ورجاؤُنا معاً من أتعابنا إننا نجدُ منكم نفوساً طاهرةً وقلوباً نقيّةً . وكلامُكَ المملوءُ منَ الحبِّ والطاعةِ يؤكّدُ لي أنّنا واجدانِ ما نرجوهُ فاثبتْ يا ابني في كلِّ صلاحٍ وبرٍّ

أنا لا أصرفُ الكلامَ الى بيانِ سروري . وأُريدُ ان أذكُرَ لكم ما حامت عليهِ المحاورةُ من بداءتها فالغايةُ التي أرادتْها تقلاهيَ معرفةُ الباعثِ لعدولي عن النهجِ المألوف . ومنَ المقرَّرِ عقلياً انَّ المخالفةَ لما وقعَ الاتّفاقُ على اتّباعهِ اذا وقعت ممَّن لهُ بصيرةٌ نقّادةٌ لا تخلو من مقصدٍ معيّنٍ فما هوَ ذلكَ المقصدُ يا تُرى ؟

انّنا بإقامتنا في هذا المنزلِ اقربُ شبهاً بمن يعتزلونَ الناسَ

---

(١) جمع شقيق وهو لاب وام (٢) ويقال العيلة ايضاً
(٣) النوم

من أن نكونَ كمَن هم في مُجتمعِ الحَشْدِ فحديقتُنا مُتعرّضةٌ للعوارضِ الخارجيةِ كثيراً ولذلك كانَ الاولى ان يكونَ سياجُ الحديقةِ شديدَ الامتناعِ على ان يُخترقَ وهذا السياجُ الشائكُ اشدُّ امتناعاً من ذاكَ فهوَ الاولى

ولا تقولوا انَّ والدَنا رجلُ حكومةٍ فصيانةُ منزلهِ مضمونةٌ بمنصبهِ فانَّ الخوفَ من وُقوعِ الأذيةِ يكونُ اشدَّ على ما هو مصدرُ الأمنِ لأنَّ صيرورتَهُ بقوّةِ الشرعِ يداً حديديةً تسحقُ كلَّ رأسٍ عاملٍ على الأذى يُعرّضُهُ وإيّانا لنقمةِ الأشرارِ اكثرَ من بقيةِ نُظرائنا في سُكنى المساكنِ المعتزلةِ لميلِ اولئكَ الارذياءِ الى ان يثأروا منّا لمَن ينكبُ العدلُ على يدِ والدِكم من عصائبِهم (١) وافرادِهم او ليتخلّصوا من وجودِ والدِكم ليتّسعَ مجالُ العيثِ والفسادِ

وإذ رأيتمُ الشوكَ ذا كرامةٍ ومنفعةٍ وهوَ نباتٌ لا ثمرَ لهُ والثمرُ الغايةُ الجُلّى المقصودةُ من النباتِ والاشجارِ فاعلَموا اذن انَّ الوجودَ البشريَّ يُماثِلُ ما في هذهِ الحديقةِ التي حوتْ انواعَ الاعشابِ والرياحينِ والأشجارِ والمزروعاتِ. وقد جئنا اخيراً بالشائكِ المُؤذي فكانَ نافعاً. فالأشرارُ الارذياءُ قد

(١) جماعاتهم

أَوجدهمُ اللهُ بداءةً للفائدةِ لا للضررِ ولا وَجهَ للطَّعنِ بحكمتِهِ عَلَى إيجادِهم وما حدثَ منهم السوءُ الاَّ لإساءةِ استعمالِ المزيَّةِ فلَو صُرِفت أميالُهم الانتقاميةُ الى دفعِ ما هو اشدُّ اذًى كانصرافِ أذيَّةِ العُروقِ الشائكةِ الى صدِّ من يُحاولُ اغتصابَ المرورِ في غيرِ وِجهةِ المرُورِ لكانَ شرُّهم خيراً ليسَ الاَّ وقدشرَحَ لناهٰذا السرَّ بولسُ الرسولُ حينما ذكرَ انَّ الخزَّافَ يصنعُ من كُتلةٍ واحدةٍ إناءَينِ فيكونُ الواحدُ للكرامةِ والآخرُ للهوانِ معَ أنَّ مظهرَهما وعُنصرَهما واحدٌ وذٰلكَ لِاختلافِ الاستعمالِ (رومية ٩: ٢١)

وإنَّ هذا السياجَ الشائكَ يُمثِّلُ لنا القُوَّةَ الحاكمةَ المُحيطةَ برَعيَّتِها فهي لا تتعرَّضُ لأحدٍ الاَّ اذا اخلَّ بحقوقِها التي وضعتْ عليها سياجًا من العدلِ فتصدُّهُ عن غايتِهِ المنحرفةِ مهشَّمًا فتصوَّروا إذَن أنَّ كلَّ امرٍ تُريدونَ الحصولَ عليهِ يجبُ ان تطرُقوهُ من بابِهِ المعيَّنِ ولا تستبيحوا التطرُّقَ اليهِ اغتصابًا باختراقِ سياجِهِ لئلاَّ ينوبكم من ذلكَ التطرُّقِ ما يمزِّقُ الجلدَ ويستنزفُ الدمَ على غيرِ جدوى بل رُبَّما أفقدكمُ السُّمعةَ الكريمةَ والصحَّةَ الجيِّدةَ والثروةَ

فهذا السياجُ يمثِّلُ لكم أمرَينِ عظيمينِ الأول — لماذا

خلقَ اللهُ الاشرارَ . والثاني — لماذا وَضعتِ الحكوماتُ القِصاصاتِ الرهيبة . فانَّ اللهَ أَتمَّ إبداعَ الوجودِ على أَكملِ مثالٍ يعلو عنِ المداركِ البشريَّةِ جدًّا لحكمتهِ الغيرِ المتناهيةِ فهو يعلَمُ ما لا نعلَمُهُ ولذلكَ يجبُ ان نَستفيدَ مما وردت بهِ مَشيئتُهُ او سماحُهُ[1] لا أَن نَتنقَّصَ حِكمتَهُ . والحُكوماتُ وَضعت كلٌّ واحدةٍ منها دُستورَ أَحكامِها على أَكملِ حِكمةٍ هدَتْها اليها الخُبرةُ الطويلةُ والبحثُ الدقيقُ فكانت صرامتُها رأْفةً فلا يُصيبُ انتقامُها الرائعُ[2] الاَّ الشرّيرَ الأَثيمَ ووَضعُ الشيءِ في محلِّهِ هو مُنتهى الاعتدالِ وغايةُ العَدالةِ . وقد صرَّحَ الحكيمُ سليمانُ بكلمةٍ هي لُؤلؤةٌ في بابِها وهذا نصُّها «طريقُ الكسلانِ كسياجٍ من شوكٍ وطريقُ المستقيمينِ مَنهجٌ» (ام ١٥ : ١٩) فتَنحَّوا عنِ السياجِ واقصدُوا المَنهجَ الذي يَرحبُ بكم ويوصِلكُم الى الغايةِ المَقصودةِ بأَمنٍ وسلامة

(١) مشيئة الله تقع بالصالح وسماحهُ يقع باجازتهِ وقوع الشرّ

الفصل الحادي عشر

كبر عداد العائلة

مبدأ الامة الاميركية في الزيارات . طريقة المشترى في نيو يورك . يجب رفع كل اناء او مادة معرّضة للتحطيم من حيث يقعد الاولاد . قوة الفراسة . الكلام دليل العواطف . البكر مقدّس لله . يجب ان يظل نظر الابناء منصرفاً الى والديهم ولو صاروا ارباب عيال . كيف تمتد ذرية الصالح . كبر العائلة لا يجلب ضيقاً عليها . مادّة الحياة هي كلمة الله

« حذارِ يا اولادي ان يرغبَ احدٌ منكم في ان يعتزلَ العالَم ، خوفاً من ان نفقاتِ العائلةِ تثقّلُ عَلَى مِنكبيهِ »

قد أَتينا الى الوُجودِ لنَسعى ... في سبيلِ المَعاشِ دُونَ كَلالِ
ولكي نُنجِبَ البَنينَ بخَوفِ اللـ ... ـهِ نَروي لهم شريفَ الخِلالِ
فيشبّوا مثلَ الملائكِ في صِد ... قِ مَقالٍ وفي حميدِ الفَعالِ
فحِذارِ الخروجَ عن خِطّةِ السعيِ ارتغاباً في وِحدةٍ واعتزالِ
لخُلودٍ الى التكاسُلِ او عن ... سوءِ ظنٍّ بما تجيءُ الليالي
حاسبينَ الأَيّامَ ذاتَ يدٍ شحّت عَلَى طالبٍ برِزقِ العِيالِ
انمّا الرزقَ يا أَحبّاءُ فيضٌ ... من هباتِ المُهيمنِ المُتعالي
وَهوَ لا يحرِمُ الذين يلوذو ... نَ بهِ من عطائهِ المُتوالي

لن يُرى صالحٌ تَسوَّلَ[1] او ذا ... قَ بنوهُ للبِرِّ ذِلَّ السؤالِ

ضروريات الحياةِ من مأكلٍ وملبسٍ توجبُ على المُعتزلينَ عن الناسِ حتى النُسَّاكِ ان يختلطوا بالجماعاتِ لمُشترى ضروريَّاتهم وقد كانت اليصاباتُ غيرَ منقطعةٍ بينها انقطاعَ رئيسِ الدَّيرِ برُهبانهِ ولذلك كانت تاذَنُ لهم بالذَّهابِ الى المدينةِ وبزيارةِ الأنسباءِ والأصدقاءِ واقتبالِ زياراتهم. ولكنَّ هذهِ الزياراتِ قليلةُ العددِ صغيرةُ الأجلِ وذلك لأنَّ من مبدإِ الأُمةِ الاميركيةِ الإقلالَ من التزاورِ حتى يمرُّ على الرجلِ شهورٌ ولا يزورُ اخاهُ. وحتى تستقرُّ عائلتانِ في منزلٍ واحدٍ وكلٌّ منهما في طَبَقٍ فتمرُّ عليهما سنواتٌ ولا زيارةَ ولا سلام. فهذهِ الشؤونُ مما لم يألفهُ الشرقيُّ حديثاً ولا قديماً بما أنَّ للجوارِ عندَ الشرقيينَ روابطَ ولائيةً ذاتَ شأنٍ حتى قالَ الحكيمُ سليمانُ إطراءً لها «الجارُ القريبُ خيرٌ من الأخِ البعيد» (ام٢٧: ١٠)

وحدَثَ انَّ اليصاباتَ ذهبت لمُشترى بعضِ ملابسَ لبنيها وبعضَ الآنيةِ المنزليَّةِ فأخذت بمعيَّتها نقلا ويوسفَ وأبقت داودَ ليكونَ نائباً عنها في الاهتمامِ ببقيَّةِ إخوتهِ فقضت وقتاً يسيراً في البحثِ عمَّا تريدهُ لأنها قصدتْ مخزناً جامعاً كلَّ

(١) شحد

صنوفِ المطاليبِ المنزليَّةِ والتجاريَّةِ على تعدُّدِ انواعها في بنايةٍ واحدةٍ متعدِّدةِ الطباقِ كثيرةِ الدوائرِ

وكانَ الاولادُ في حاجةٍ الى دفاترَ لكتابةِ فروضهم فاشترتها نقلا ورأى يوسفُ في دائرةِ الورقِ رسمَ شجراتٍ كبيرةٍ ذا منظرٍ شائقٍ فاشتراهُ وعادَ الولدانِ مع أُمِّهما مسرورين

ولمَّا اقتربوا من بابِ المنزلِ كانَ الاولادُ الباقونَ يلعبونَ في الحديقةِ فاسرعوا الى الوالدةِ مسلِّمينَ ومرحِّبينَ فدخلوا جميعاً بابتهاجٍ

والعادةُ في نيويوركَ أنَّ من يشتري شيئاً من الملابسِ ينقدُ البائعَ قسماً من ثمنهِ ويبقي التتمَّةَ معهُ ويدفعُ الى البائعِ ورقةً عليها اسمهُ ونمرةُ مسكنهِ فيبعثُ البائعُ من قبلهِ من يوصلُ السلعَ المشتراةَ ويتناولُ تتمَّةَ الثمنِ ويعطي بما تناولهُ وصلاً قانونياً من قبلِ المحلِّ فلذلكَ يهونُ على المشترينَ أن ينتقوا ما شاءوا دونَ انزعاجٍ لنقدِ الثمنِ حالاً او لوجوبِ الاهتمامِ بالمشترى (١)

(١) هذه الطريقة ليست خاصة بمخازن نيويورك بل هي عامَّة في معظم الممالك المتمدنة حتى القطر المصري ايضاً كما في الاسكندرية مثلاً فجذا لو شاعت في سوريا ايضاً

فلَم يسألِ الأولادُ أُمَّهم عمَّا اشترَت لهم ولٰكنَّهم سألوا شقيقتَهم عنِ الدفاترِ فأَرتهم إيَّاها وكانت كلُّها من نوعٍ واحدٍ لاتختلفُ في شيءٍ ثمَّ وزَّعتها عليهم ببَشاشةٍ وحُبٍّ وبعدئذٍ قال يوسفُ — أَعرفتم يا أُخوتي ماذا أَحضرتُ تُحفةً جميلةً ... ها أَناذا أُريكم ما يَسُرُّكم . ثمَّ نَشرَ هو وشقيقتُهُ كانرينُ الرسمَ الذي جاءَ بهِ فراقَ لهم جميعاً وقالَ داودُ — يَجمُلُ بنا أَن نَضعَ هذا الرسمَ في صدرِ مجلسِ الحديقة . وقالت كانرينُ — لو كُنتُ انا مكانَ يُوسفَ لفضَّلتُ إِحضارَ هذا الرسمِ ضمنَ إِطارٍ[1] جميلٍ لهُ وَجهٌ منَ البلُّور . فردَّت ثقلا عليها قائلةً — أُذكري انَّ مجلسَ الحديقةِ عُرضةٌ للأمطارِ وأَنَّ حنَّةَ وصموئيلَ وفيكتوريا يَغتنمونَ نُهَزاً كثيرةً ليَلعبوا بها فيكسِرونَ بلُّورَها وليسَ منَ الرأيِ السديدِ ان تُوضَعُ الأَشياءُ المعرَّضةُ للتحطيمِ في اماكنِ الاولادِ الصِغارِ

وبعدئذٍ اسرعَ يوسفُ الى المطبَخِ فاصطنعَ غِراءً من نَشاءٍ وانحدرَ بهِ هوَ وشقيقاهُ وشقيقاتُهُ حتى انتهَوا الى مجلسِ الحديقةِ فتخيَّروا مكاناً مناسباً لإِلصاقِ الرَّسمِ وقامَ بذاكَ العملَ داودُ وثقلا

(١) برواز

وفي عصرِ ذاكَ النَّهارِ قَدِمَ والدُهم من عملهِ فلاقوهُ بحَفاوةٍ واعتنقوهُ أَيمَّا اعتناقٍ وساروا بهِ وبوالدتهم الى مجلسِ الحديقةِ واقعدوهما في صدرهِ وأَحاطوا بهما يميناً وشمالاً وقال يوسفُ وهو يُشيرُ الى الرسمِ الذي اشتراهُ — أَما ترى يا أَبتِ هذا الرسمَ جميلاً

فاجابَهُ — جميلاً جدًّا فنعمَّا مُشتراك اياهُ وها أَناذا أَنقُدُك ثمنَهُ مضاعفًا

فعجبت حنَّةُ لكلمةِ ابيها وقالت — مَن ادراكَ يا أَبتِ ان يوسفَ قد اشتراهُ . فقالت ثقلا — أَما قالت لنا والدتُنا أَنَّ أَبانا يَعرِفُ ما نَعملُهُ وهو غائبٌ كما لوكان حاضراً بيننا . أَرأَيتِ أَنَّ قولَ والدتنا حقٌّ ولا رَيبَ فيهِ

وكانَ الذي وجَّهَ خاطرَ المستر بولسَ الى أَنَّ يُوسفَ هوَ الذي اشترى الرسمَ هُوما رآهُ من إِسراعهِ في طَلَبِ الحُكمِ بجَمالهِ وما علا وجههُ من الامائرِ

ثم قالت ثقلا بعدَ سكوتٍ غيرِ طويلٍ انَّ هذا الرسمَ يصوّرُ لنا نُموَّ العائلةِ البشريَّةِ التي ملأَتِ الآفاقَ بفروعها وكلُّها من أَصلٍ واحدٍ هو الجَدَّانِ الأَوَّلانِ

فقال داود — ويصوّرُ لنا بوجهٍ خصوصيٍّ صورةَ البيتِ

المُبارَكِ فانَّ يعقوبَ قالَ مبارِكاً ولدَهُ يوسف « يوسفُ غُصنُ شجرةٍ مُثمِرةٍ . غصنُ شجرةٍ مثمرةٍ عَلَى عَينٍ . اغصانٌ قدِ ارتفعت على حائِط » (تك ٤٩ : ٢٢)

فقالَ الأَبُ بُورِكتَ يا ولدي فانتَ كاهنُ البيتِ ان شاءَ اللهُ

فأَجابتِ الأُمُّ — هذا من سعادتِنا فانَّ الأَبكارَ لله وقد قالَ اللهُ لموسى نبيِّهِ « قدِّسْ لي كلَّ بِكرٍ » (خر ١٣ : ٢)

وقالَ يوسفُ راجعاً الى الحديثِ الاول — قد وضعنا هذا الرسمَ هُنا حيثُما تَقعُدانِ يا والدَينا ونحنُ نُحيطُ بِكُما ليكونَ المَشهدُ ناطقاً بِلسانِ داود « اولادُكَ مثلُ غِراسِ الزَّيتونِ حولَ مائدتِك » (مز ١٢٨ : ٣) فسُرَّ الأَبُ بكلمةِ ابنِهِ ولم تتمالكِ الأُمُّ نفسَها عن تَقبيلِهِ قائلةً — يسرُّني يا ولدي أَن تكونَ لكَ هذهِ التصوُّراتُ الشريفة

وقالت كاترين — أَخبِرينا يا امي ما هٰذهِ الشجرة

فأَجابت — حبًّا وكرامةً . هذهِ الصورةُ تُمثِّلُ رسمَ شجرةٍ عظيمةٍ في بِلادِ الهندِ تنمو نُموًّا عجيباً فتملأُ مُتَّسَعاً من الأَرضِ بأَغصانِها التي تتعالى الى أَوجِ السماءِ ثمَّ ينحدرُ رأسُ كلِّ

غصن من علوّه حتى يحلّ في الثرى فيصير جرثومة كبيرة تتصاعد أغصانها فتنحدر رؤوسها بعدئذٍ وهكذا يجري الامر عليها الى غير نهاية . فترون من هذا مثالاً لنموّ البنين وكبرهم حتى يضحوا رجالاً ويصيروا آباءً وأمهاتٍ ولكنهم يظلّون متعلقين بأبويهم برابطة الحياة . والشجرة الاصلية تزداد رسوخاً في عالم الوجود بتكاثر الشجرات المتفرّعة عنها اذ يعود عليها من تلك الشجرات مادة حياة جديدة . وهذا مثال يعلّم الأبناء الذين صاروا رجالاً أرباب بيوت خاصة أنّ واجباتهم النبوية تحتم عليهم أن يساعدوا آباءهم مادياً لكي يظلّ آباؤهم متمتعين بحياة رغيدة ومكرّمة ولذلك يقول الحكيم ابن سيراخ : يا بني أعن أباك في شيخوخته ولا تحزنه في حياته . من خذل أباه فهو بمنزلة المجدّف ومن غاظ أمه فهو ملعون من الربّ » (ابن سيراخ ٣ : ١٤ و ١٨)

وقد ذكروا عن شجرة في الهند من هذا القبيل بلغت مساحة الارض التي تشعّبت فيها اغصانها وصارت اشجاراً مسافة أميال عديدة وهذا مثال يرينا كيف تمتدّ ذرية الصالح من البشر فيرى بنيه وبني بنيه أجيالاً كما رأى اسرائيل ابناء

بنيهِ وباركهم.

ثمَّ ان امتدادَ تلكَ الاغصان وامتصاصها الغذاءَ من الارضِ لا ينفدُ قوَّةَ التغذيةِ منها بلِ الأمرُ بالعكسِ لأنَّ امتدادَ الغصونِ وصيرورتها اشجاراً يستدعيانِ استدرارَ أمطارِ السماءِ بغزارةٍ فتتوفَّرُ المادَّةُ المُغذّيةُ في الارض. وهذا مثالٌ يُرينا انَّ كبرَ العائلةِ لا يجلبُ ضيقاً على معاشها الجسديّ بل يستجلبُ بركاتِ السماواتِ التي تهطلُ بغزارةٍ تُغذّي الأرواحَ والأجسادَ فحذارِ يا أولادي ان يرغبَ أحدٌ منكم في ان يعتزلَ العالمَ خوفاً من أنَّ نفقاتِ العائلةِ تُثقلُ على منكبيهِ فذلكَ التصوُّرُ يدلُّ على ضعفِ الايمانِ بمراحمِ الربِّ الإلهِ فهو مدعاةٌ الى الشقاءِ.

وأمَّا قولُ الرسولُ بولسُ وكانَ بتولاً «أريدُ أن يكونَ الناسُ جميعاً كما أنا» (١ كو ٧:٧) فمُرادُهُ الانصرافُ المُطلقُ الى خدمةِ البرِّ بالقولِ والعملِ ليلاً ونهاراً لتفرُّغِ البتولِ من متاعبِ الاهتمامِ بالعائلةِ الخصوصيةِ فغيرُ المتزوّجِ يهتمُّ في ما للربِّ كيف يُرضي الربَّ واما المتزوّجُ فيهتمُّ في ما للعالمِ كيف يُرضي امرأتهُ» (١ كو ٧:١٣) ومنِ انصرفَ الى خدمةِ البرِّ كانَ أباً لعائلةٍ كبرى أباً لكلِّ يتيمٍ ويتيمةٍ ومعيناً لكل محتاجٍ

ومحتاجةٍ وعَضُداً لكلِّ ضعيفٍ وضعيفةٍ ومعلِّماً لكل جاهلٍ وجاهلةٍ ومُفتقداً لكل مريضٍ ومريضةٍ روحياً او جسدياً فهو لا يَهرُبُ من عالَمِ الزَّواجِ خوفاً من نَفَقاتِ العائلةِ الخُصوصيَّةِ بل لِيُنفِقَ على العائلةِ العموميَّةِ المؤلَّفةِ من كلِّ انسانٍ مُحتاجٍ ويكونَ أباً لعددٍ غيرِ محصورٍ بدلاً من أن يكونَ أباً لعددٍ محصورٍ ولذلكَ يقول سليمانُ الملكُ في سِفرِ حكمتهِ « البتوليَّةُ مع الفضيلةِ أجملُ فانَّ معها ذكراً خالداً لانها تبقى معلومةً عندَ اللهِ والناس » (٤ : ١) فمَن شاءَ منكم فليقِفْ نفسهُ لخدمةِ اللهِ بنشرِ كلمةِ الخلاصِ كبولسَ الرسولِ او لخدمةِ اللهِ باستخراجِ الحقائقِ العلميَّةِ كاسحاقَ نيوتونَ الفيلسوفِ او لخدمةِ اللهِ بإمدادِ مشروعاتِ البرِّ بالمالِ المذخورِ باليدِ كمُحسنتنا مس هلن غولدَ الثريَّةِ التي تُنفِقُ مساناةً مليونَ ريالٍ على معاهدِ العلمِ والمستشفياتِ ونشرِ المؤلَّفاتِ المُفيدةِ وتربيةِ اليتامى ومساعدةِ المحتاجينَ

والخُلاصةُ يجبُ ان نكونَ كما اوصانا الرسولُ بطرسُ قائلاً « ليكُنْ كُلُّ واحدٍ بحسبِ ما أخذَ موهبةً يخدمُ بها بعضكُم بعضاً كوُكلاءَ صالحينَ على نِعمةِ اللهِ المُتنوِّعة » (١ بط ٤ : ١٠)

أنموا يا أولادي نظيرَ هذهِ الشجرةَ وكما أنَّ مادَّةَ الحياةِ قد وصلت بينَ اصلِ هذهِ الشجرةِ وفروعها فلتكُنْ مادَّةُ الحياةِ

كذلك واصلةً بيننا وبينكم وتلكَ المادَّةُ هي ولا رَيبَ « كلمةُ اللهِ التي هيَ حيَّةٌ وفعَّالةٌ وخارقةٌ الى مَفرَقِ النفسِ والروحِ والمفاصلِ والمخاخِ . ومميِّزةٌ افكارَ القلبِ ونيَّاتِهِ » (عب٤: ١٢) فهيَ التي تربُطُنا جميعاً برِباطِ الأُلفةِ والمحبَّةِ عَلَى الدَّوام

الفصل الثاني عشر

في السهولة والصعوبة في تحصيل المطالب

حادث عظيم . قبول رب المنزل ان يخوض الخطر قياماً بواجب وظيفتِهِ . معرفة العاقل موقفهُ الرائع . تأمين العاقلِ زوجتهُ الحكيمة . كيف يكون الاولاد المهذَّبون في غيبة والدهم . تأثير الثروة عَلَى الهيئة الحاكمة في اميركا . علوّ المنزلة يدعو الى لين الجانب . ذكر شرابٍ يتعاطاهُ الاميركيون صيفاً وشتاءً . ذكرى ايام المدرسة . كلمة عن شجرة النخل واقتطاف ثمارها . ليست نعمة الارتزاق تأتي بغير اهتمام ومشقَّة

« انَّ من الحقائقِ ما لا يُنطَق بهِ . وان المشاقَّ موضوعة حتماً للحصول على الأماني الشهية »

إحذَرْ لِسانكَ ان يكونَ كأنَّهُ لَوحُ الزُّجاجِ لكلِّ سرٍّ يُعلِنُ

فلقدْ تأيَّدَ بالتجاربِ أنَّهُ بعضُ الحقائقِ كتمهُ مُستحسنُ
واعلم يقيناً أنَّ من دُونِ المُنى سعياً وحضَّ عزيمةٍ لا تُوهنُ
إنَّ المتاعبَ وضعُها حتمٌ على أشهى مآربَ يرتجيها الازكنُ
هي كالغشاوةِ مَن يجاوزها يجدْ كلَّ الأماني المُستحبَّةِ تبطنُ

حدثَ في نيويورك حادثٌ عظيمٌ هوَ أنَّ امينا لأحدِ المصارفِ العظيمةِ اختلسَ مبلغاً طائلاً يفوقُ على ثلاثةِ ملايينِ ريالٍ وفرَّ بهِ الى حيثُ اختفى فكانَ من وراءِ ذلكَ حدوثُ زوبعةٍ هائلةٍ في بحرِ الأعمالِ التجاريَّةِ . وعرضَ أصحابُ المَصرَفِ على الحكومةِ المحليَّةِ ما كانَ فانتدبتِ الحكومةُ المستر بولسَ ووكلت اليهِ أن يُلاحقَ ذاكَ اللصَّ وسلَّمتهُ بالأوامرِ الصارمةِ وأذنت لهُ ان يتغيَّبَ عن مركزِ عملهِ حسبما يشاءُ وان يصحبَ من يريدُ من رجالهِ

وعرفَ المستر بولسُ أنَّ نجاحهُ في هذهِ المهمَّةِ يعودُ بالذكرِ الجميلِ على شُرطِ نيويورك عموماً وبالفائدتين الماديَّةِ والادبيَّةِ عليهِ خُصوصاً فاطاعَ الاوامرَ الصادرةَ اليهِ برضىً وأطلعَ زوجتهُ على المهمَّةِ التي أُنيطت[1] بهِ وودَّعها وداعَ من

(١) تلقت

لا يعلَمُ إن كانَ ميعادُ إيابِهِ [١] قريباً او بعيداً او ان كانَ لهُ حظٌّ في الرجوعِ سالماً لأنَّ العدوَّ الذي وَجَبَ عليهِ مُلاحقتُهُ يمتلكُ بتلكَ السَّرقةِ ثروةً عظيمةً وهُوَ ولا شكَّ عالمٌ بما أُعِدَّ لهُ منَ العقابِ اذا وقعَ في قبضةِ الحكومةِ فاذا شعرَ بأنَّ أحداً يبحثُ عنهُ لا يرى لنفسِهِ خيراً من أن يدفعَ بعضَ الاشرارِ الى الفتكِ بذاكَ الباحث

والحكومةُ تعلَمُ العلمَ الحقيقيَّ ما أمامَ مندوبِها من العقباتِ [٢] فعيَّنت لعائلتِهِ مرتَّباً شهرياً تتناولُهُ في مدَّةِ غيبتِهِ وكفلَت لهُ أنَّها تدفعُ الى عائلتِهِ مبلغاً طائلاً ان قضى لا سمحَ اللهُ في سبيلِ واجبِهِ هذا . وهو كرجلٍ حازمٍ أطلعَ زوجتَهُ على ما أمامَهُ منَ الخطرِ والكرامةِ ودفعَ اليها كلَّ ما ذخرَ في المصارفِ وخوَّلها [٣] ان تتصرَّفَ بهِ كما تشاء

وودَّعَ بنيهِ وداعاً كانَ مؤثِّراً جداً لخشيتِهِ ان تكونَ تلكَ القُبلاتُ ختامَ ما يُكتبُ لهُ اجتناؤُهُ من تلكَ الوجناتِ ثمَّ ألقى عليهِم نصائحَ متناهيةً حكمةً وختمَها بقولِهِ انَّ الاولادَ الصالحينَ يكونونَ في غيبةِ والدِهِم اكثرَ طاعةً لوالدتِهِم حتى

(١) رجوعه (٢) العقبة المرقى الصعب في الجبال والكلام مجازي اي المصاعب (٣) أذن لها

تكتب اليه مادحة تصرفاتهم الحسنة فيمتلىء قلبهُ بهجة وبارکهم من أعماق ضميرهِ . فوعدهُ داودُ وعداً صادقاً أنهُ سيكون هوَ وإخوتهُ غاية في الصلاحِ وحسنِ السيرةِ على الدوامِ ولاسيما في غيابهِ وانهم سيواصلون الصلاة الى اللهِ تعالى لكي يعيدهُ اليهم عاجلاً وهوَ متمتعٌ بثوبِ العافيةِ ومتقلدٌ حليةُ النجاح

ورأى المسترُ بولس أنَّ من الحكمةِ أن يتخذَ لذهابهِ من المدينةِ صفةَ نزهةٍ لتأكيدهِ أنَّ للمختلسِ شركاءَ وأنهم ربما كانوا يرصدونهُ فأذنَ لزوجتهِ وبنيهِ أن يصحبوهُ الى ظاهرِ المدينةِ فذهبوا جميعاً وقضوا نهاراً كاملاً يتمتعونَ بالطوافِ في الضواحي (١) وأعادَ الأبُ في نهايتهِ التوصياتِ وأفادهم أنَّ اللهَ ناظرٌ الى قلوبهم فإنِ اختاروا اتباعَ السيرةِ الحسنةِ منهجاً يسرَّ لهُ سبيلَ رجوعهِ وان اساءوا فانهُ لا يعودُ إليهم فكانَ لكلمتهِ هذهِ تأثيرٌ شديدٌ عليهم

وبعدَ أن أدّوا واجباتِ الوداعِ الاخيرِ عادتِ الوالدةُ ببنيها وهيَ تظهرُ ثباتَ جأشٍ (٢) ثقةً باللهِ ولكنَّ أمائرَ التأثرِ على محيّاها لم تكن خافيةً . وما سارت بهمِ العربةُ مسافةَ نصفِ

(١) جمع ضاحية وهي ما ظهر وبرز من المدينة (٢) اي رصانة وسكينة

ساعةٍ حتى لاحَ أمامهم منزلُ الآنسةِ هانَ غولدَ الغنيَّةِ المُحسنةِ وقد احاطت بهِ حديقةٌ تُعَدُّ من أجملِ حدائقِ الدُّنيا فارادتِ السيدةُ اليصاباتُ أن تجتازَ بالقُربِ منها تَنشُّقاً للهواءِ اللطيفِ وإرهاجاً للخاطر

وكانتِ السيدةُ اليصاباتُ رفيقةَ الآنسةِ هَانَ في أيامِ التَّلمذةِ وبينهما روابطُ ولائيةٌ ظلَّت على حالها بعدئذٍ فلمَّا تأهَّلت (١) اليصاباتُ انقطعت عن زيارةِ رفيقتِها لشؤونٍ منها انهماكُها بمهامِها المنزليةِ ومنها أنفتُها ان تُحسبَ زيارتُها لتلكَ الغنيَّةِ من بابِ التزلُّفِ لتستخدمَ تلكَ الصداقةَ واسطةً لترقيةِ زوجِها في مناصبِ الحكومةِ فانَّ للثَّروةِ في الولاياتِ المتحدةِ الشماليَّةِ التأثيرَ الكبيرَ في تقليدِ رجالِ الاحكامِ المناصبَ الخطيرةَ فتلكَ الولاياتُ لا ملكَ لها من ذوي التيجانِ ولكنها لها ملوكٌ كثارٌ من ذوي الأموالِ الطائلةِ من رجالٍ ونساءٍ وأوانسَ وسلطانُ الفردِ أقربُ الى الانتظامِ من سلطانِ العديدينَ ولا سيما ذوي الطَّمعِ الجائرِ

وحدثَ أنَّ السيدةَ هلنَ كانت في سيَّارةٍ (اتوموبيل) تجولُ بها بقُربِ منزلِها فصادفَ تلاقي الرفيقتينِ على غيرِ

(١) تزوجت

ميعادٍ فلمَّا تدانت المركبتان دفعت عواطفُ الحُبِّ الثابتِ تلكَ الصديقتين الى طرحِ التحيَّةِ في وقتٍ واحد

وادركت هلنُ ان قُربها من منزلها وسموَّ مكانتها يُوجبان عليها ان تُظهرَ الحفاوةَ برفيقتها فاشارت الى سائقِ السيَّارةِ أَن يُوقفَها وانحدرت منها لمُصافحةِ رفيقةِ صبوتها فجارتها اليصاباتُ بالمثلِ وبعدَ المصافحةِ التي اقتصرت على وضعِ اليدِ باليدِ قالت هلن — آهِ من قلبكِ القاسي أَسنواتٌ تمرُّ ولا أَراكِ ؟ في أَيَّةِ أَرضٍ انتِ

فاجابت اليصابات — في نيويورك

فقالت — أَفي نيويورك انتِ ولا زيارةَ لي منكِ على الإطلاق — لله درُّك

ليسَ هذا من شيمةِ الأَحبابِ جفوةٌ مع تودُّدٍ واقترابِ
كانَ عُذرٌ لو كانَ ثمَّ نفارٌ منهُ تشكينَ او حؤُولُ اغترابِ

فاجابتها — أَنتِ تعلمينَ أَنَّ منَ الحقائقِ ما لا يُنطقُ بهِ وهوَ الذي قضى عليَّ بما قضى . فادركت هلنُ المرمى البعيدَ الذي اشارت اليهِ أَليصاباتُ تلميحاً وهزَّت رأْسها قائلةً — آهِ ثم آهِ من الاعتباراتِ الكاذبةِ التي تفرُقُ بينَ القلوبِ المتصافيةِ . فياعزيزتي انَّ هلنَ هي هلنُ ولَن تتغيَّرَ فهل تغيَّرتِ

أَنتِ ... هل وَجدتِ الكِبرياءَ موضعاً في ذٰلكَ القلبِ الذي كُنتُ أَعهدُهُ مملوءًا من روحِ الاتّضاعِ . أَخبريني فان كانَ لظَنّي صحةٌ كانت خَسارتي لا تُعوَّض

فقالت اليصابات — معاذَ اللهِ أَن أَنسى مَن أَنا . وأَنتِ معاذَ الله ان يكونَ عندكِ رَيبٌ في صِدْقِ وَلائي ولٰكن

فقاطعتها هلنُ قائلةً — بحقِّ الوِدادِ دَعي ولكن وهلمَّ بي الى مَصفِّ الملائكةِ الذي أَراهُ بمعيّتِكِ . أَفهوَ البركةُ التي حَباكِ اللهُ بها ؟

فاجابت اليصابات — نعم

فقالت هلن — ليكنْ ملاكُ اللهِ حارساً لهُ فهلمَّ الى منزلي نرتَحْ منَ العَناء وأُبثّكَ بعضَ ما في صدري منَ الاشواق

وبالإلحاحِ الشديدِ حملت هلنُ صديقتَها عَلَى إِجابتِها الى ذٰلك وكانَ الوقتُ عصراً فسألت اليصاباتُ رفيقتَها ان تمضيَ بها وبنيها الى الحديقةِ ووعدتْها أَنها ستزورُ منزلَها في أَجل غيرِ بَعيدٍ فلم تَبخَلْ هلنُ بإِجابةِ الطلبِ ولمَّا دخلت بها الى حديقتها اُعتنقتا اعتناقَ الأُختينِ . ثمَّ أَخذَتا تَتجوّلانِ والاولادُ يُحيطونَ بهما حتى استقرُّوا في منتصفِ الحديقةِ وأَمامَهم شجرةٌ من النَخيلِ تُناطِحُ أَوجَ السماءِ برأسِها

وكانتِ السيدةُ هلنُ ترغبُ في أن تبذلَ لرفيقتها وبنيها حقوقَ الضيافةِ بسخاءٍ فرجتها اليصاباتُ أن تقتصرَ على بذلِ كأسٍ من شرابٍ منعشٍ يُدعى السودا فيهِ شيءٌ منَ الحليبِ المتجمّدِ بالثلجِ وهذا الشرابُ تتناولهُ الأُمّةُ الاميركيةُ صيفاً وشتاءً وأبت أن تتناولَ او أنْ تأذنَ لبنيها أن يتناولوا شيئاً من صنوفِ الحلوياتِ الجامدةِ (الكاندي) او المُجمّداتِ لأنها كانت تعدُّ هذهِ الصنوفَ مُضرّةً

وكانَ صموئيلُ قليلَ الصبرِ فلما رأى شجرةَ النخلِ الشامخةَ اقتربَ من والدتهِ واسرَّ اليها كلمةً هيَ ما اسمُ هذهِ الشجرة ؟ ارجوكِ يا أُمّي ان تغرسي في حديقتنا واحدةً مثلها . فضحكتِ الوالدةُ ووعدتهُ أنها ستجيبهُ على سؤالهِ

ثمَّ انصرفت اليصاباتُ وبنوها مشيّعينَ بالإكرامِ بعدَ ما دارَ الحديثُ في حوادثِ الأيامِ السابقةِ التي مرّت كالحُلمِ ولم يبقَ الاّ ذِكراها والتلهُّفُ على مُرورِها واتفقتِ الرفيقتانِ على موعدِ زيارة

فلمّا انتهتِ العائلةُ الى منزلها وجدتِ الطعامَ جاهزاً فأسرعت بعدَ غسلِ الوجوهِ والأيدي الى المائدةِ وتناولتْ بشهيةٍ ما أعدّتهُ الخادمةُ ولمّا استوفوا حاجتهم أعادَ صموئيلُ

السؤالَ على والدتهِ عن تلكَ الشجرةِ فقالت

— يا أولادي . تلكَ الشجرةُ الشاهقةُ هيَ شجرةُ النخلِ التي تجودُ غرساً بنوعٍ خصوصيٍّ في ديارِ العربِ والعراقِ ومصرَ وثمرُها لذيذٌ جدًّا ومن خصائصِها أنها تسمو الى العلوِّ كثيراً ولمَّا كانتْ للهِ حكمةٌ في مبروءاتهِ جعلَ من خصائصِ عناقيدِ هذهِ الشجرةِ التي ثمارُها أشبهُ بالاصابعِ الممتلئةِ أنَّها ذاتُ تماسكٍ فيقتضي لاقتطافِها تسلُّقُ جذعِها الى الأعالي

وليسَ ذاكَ التسلُّقُ بالامرِ اليسيرِ ولا سيماَّ أنَّ جذعَ (١) الشجرةِ ليسَ لهُ أُبَنٌ (٢) لتستندَ الأقدامُ عليها . فهيَ تمثِّلُ لنا باحتفاظِها على ثمرِها في ذلكَ العلوِّ الشاهقِ المطالبَ الشهيَّةَ التي يجبُ للحصولِ عليها إعمالُ الفكرةِ وبذلُ القوّةِ وصرفُ الزمنِ الطويلِ وهذا مثالٌ يعلِّمُنا وجوبَ تكبُّدِ المشاقِّ في سبيلِ الحصولِ على المقاصدِ العاليةِ والنافعةِ . وانَّ الحاجةَ الى الوقتِ ضروريةٌ للفوزِ بالآمالِ فاعلَموا إذَن أن ابتعادَ والدِكم ليسَ عن عبثٍ بل عن قيامٍ بعملٍ خطيرٍ

واعلَموا يا أبنائي الاعزَّاءَ . أنَّ ثمرَ النَّخلِ ان لم يُقطَفْ في أوانِهِ لا يلبثُ أن ينضجَ أتمَّ نضجٍ فتنحلَّ القوى المتماسكةُ

(١) ساق (٢) جمع أُبنة وهي العقده

في عناقيدهِ وتَسقُطَ أَفرادُ ثمَراتهِ واحدةً فواحدةً وتُمزَّقَ أغشيةُ الثَّمرات حينَ هبُوطِها من ذاكَ العلوِّ الشاهقِ بقوَّةِ الاصطِدامِ بالأَرضِ فيُسرِعَ الفَسادُ اليها وتَضيعَ الغايةُ المرجوَّةُ منها وهٰذا مِثالٌ يُوضِحُ لنا أنَّ مطالبَنا يجبُ أَن نَسعى اليها في أوانِ نَضجِها وليس لنا ان نتمهَّلَ على أَملِ أَن تأْتيَ الينا من تلقاءِ نفسِها بدُونِ عناءٍ فاننا بذٰلكَ نُحرِمُها بدَلَ أَن نستفيدَ بها . فتأَكَّدوا من هٰذا أَنَّ المَشاقَّ موضوعةٌ حتماً للحُصولِ على الأَماني الشهيَّةِ واعلموا ان الحُكمَ الصادرَ من فمِهِ الأَقدسِ المُعلَنَ هكذا « بعرَقِ جبينِك تأكُلُ خُبزَك » (تك ٣ : ١٩) هوَ حقيقةٌ لا رَيبَ يُدانيها وأنَّ هذهِ الحقيقةَ ينطِقُ بها لسانُ شجرةِ النَّخلِ فلتكنْ لنا آذانٌ تسمعُها

فإذا علمتم هٰذا فحذارِ يا اولادي الكسلَ فانهُ الداءُ الوبيلُ داءُ التَّقهقُرِ والانحطاطِ وما من عائلةٍ تكاسلت وتواكلت الاَّ افتقرت وأَضاعت ثروتَها وحُرِمت كرامتَها

والآنَ قد عرَفتم أَنَّ والدَكم يتسلَّقُ في ابتعادِهِ عنَّا شجرةَ نخلٍ ليَجنيَ ثمَراتِها فاسألوا اللهَ عزَّ وجلَّ ان يجعلَ ملاكَ النَجاحِ رفيقَهُ فيتمكَّنَ من الوصولِ الى مطلوبِهِ وهوَ ثابتُ العزيمةِ

رابطُ الجأشِ قويُّ الذِراعِ فيقتطِفَ لهُ ولنا الأَمانيَّ الشهيَّةَ التي نرجو أَن يأْتيَ مصحوباً بها فانَّ من شجرِ النخلِ ما يكونُ علوُّ ساقِهِ عن الارضِ ذِراعاً واحدةً فلا فلا تعبَ في قطفِ عناقيدِهِ

فسُرَّ الأَبناءُ بهذهِ النتيجةِ الحسنةِ ووعدُوها انَّهم سيظَلُّونَ غايةً في الاجتهادِ والنَّشاطِ يسأَلونَ اللهَ بقُلوبٍ نقيَّةٍ وسيرةٍ مَرضيَّةٍ أَن يُقرِّبَ رجوعَ والدِهم اليهم سالماً غانِماً

الفصل الثالث عشر

في ان من الواجب ان نتدرَّع بالصبر في لقاء المصائب

تشذيب الغصون . تقسيم الغصون الى صالح للاثمار والى غير صالح . التشذيب لا يؤذي الغصون . تقسيم الناس الى صالحين وطالحين . حكمة الله في تشذيب بستان الوجود البشري . بين تشذيب الغصون وتشذيب العيال فارق عظيم . يجب ان نقبل احكام الله برضى . النكبات السماوية تجلب خيراً لا شرًّا

« ان النكبات التي تنتابنا بأَمرِ الله عزَّ وجلَّ تزيدُ في نُموِّنا متى جازت وجاءَ على اثرها دور الإِنماء »

تَدَرَّعِ الصبرَ إن وافتكَ نائبةٌ فالصبرُ خيرُ دُروعِ المرءِ في الغِيَرِ
واعلمْ بانَّ الخطوبَ السودَ ما بَرِحت
تَنتابُ كلَّ امرئٍ من سالفِ العُصُرِ
كذا قضى اللهُ من جلَّت مشيئتُهُ
فمَنْ يَرُدُّ قضاءَ المُبدِعِ القدَرِ
لكنْ متى جازَ دورُ النائباتِ أتى
دورُ النموّ بنُجحٍ غيرِ منتظَرِ
فلا تكن قانطاً إن تعرُ نائبةٌ
وعُذْ برحمةِ ربٍّ رازقِ البشَرِ
من لاذَ باللهِ في ليلِ الهمومِ محا
ذاكَ الدُّجى بمُحيًّا لاحَ كالقمَرِ
وحالُهُ باتَ يروي للورى علَناً
مَن يتَّقِ اللهَ يُدرِكْ غايةَ الوَطَرِ

إنصرفَ الاولادُ من دروسِهِمِ البيتيَّةِ أحدَ الأيامِ فوجدوا في الحديقةِ رجلاً بيدهِ آلةٌ حديديةٌ وهوَ يجيلُ نظراً في كل شجرةٍ يصلُ اليها ثم لا يلبثُ أن يعملَ آلتَهُ فيقطعَ من فروعِها ما بدا لهُ . وكانت والدتُهم بمرأًى منهُ غيرَ معارضةٍ إياهُ في عملِهِ . وامَّا الخادمةُ فلا تزالُ تتعقَّبُ ذاكَ الرجلَ على كلِّ

شجرةٍ ينصرفُ عنها فتجترُّ ما اقتطعهُ الى موضعٍ في وسطِ الحديقةِ . فلمَّا أقبلَ الاولادُ أشارت الأُمُّ الى الكبارِ منهم أن يقتدُوا بالخادمةِ ويجترُّوا ما لم تتفرَّغْ لهُ بعدُ ففعلوا وكانَ لهم بذاكَ العملِ رياضةٌ بدنيةٌ وابتهاج

وبعدَ أن اكملَ الرجلُ عملهُ نقدتهُ السيدةُ اليصاباتُ ورقةً خضراءَ قيمتُها ريالانِ فانصرفَ شاكراً على رجاءِ الحُضورِ في موعدٍ ثانٍ وظلَّ الاولادُ في عملهم حتى انتهوا والعرقُ يتسرَّبُ من أبدانِهم فصعدت بهم الى الحمَّامِ وكانَ مُعدًّا من قبلُ فاغتسلوا واحداً بعدَ آخرَ ولبسوا ثياباً جديدةً ثمَّ عمدوا الى الراحةِ وبعدئذٍ مضوا الى غُرفةِ الطَّعامِ فأكلوا هنيئاً وسألت كاترينُ والدتها قائلة

— لماذا جاءَ ذاكَ الرجلُ وقطعَ الاغصانَ من حديقتِنا فلم تغضبي بل أعطيتهِ نقوداً وعيَّنتِ موعداً آخر لحضورهِ . إنَّني تأثرتُ جدًّا لتلكَ الأغصانِ الناضرةِ التي رأيتُ الشجراتِ متأثرةً لفقدِها حتى كُنتُ أرى ما يتحلَّبُ من مواضعِ قطعِ الغصونِ ماءً يسيلُ كأنَّهُ دُموعُ أُمَّاتٍ على بنيها الذينَ قُطعوا من جسدِ الوجودِ على غيرِ جنايةٍ ولا ذنب

فابتسمت اليصاباتُ في وجهِ ابنتِها وقالت — كلمتُك

يا ابنتي لطيفةٌ وطلبُك البيانَ عمَّا جرى جميلٌ. والموضوعُ الذي سأُكلِّمكُمْ عنهُ على جانبٍ منَ الدِقَّةِ يجبُ إعطاؤُهُ التنبُّهَ الأَتمَّ فحوِّلوا اليَّ مسامعكم وقلوبكم

يا أولادي : إنَّ الشجراتِ تنمو غصونُها فيكونُ بعضُها صالحاً للحياةِ وللإثمارِ معاً . وبعضُها غيرُ صالحٍ للإثمارِ ولا للحياةِ فوجودُ هذا الفريقِ يُضعفُ الفريقَ الأَوَّلَ نموًّا وإثماراً لأَنهُ يقاسمُهُ ماءَ الحياةِ الشجريةِ التي رأَتها كاترينُ فحسِبَتْها دموعاً تفيضُ على باعثِ التأَثُّرِ

فلكي ترتفعَ الاذيَّةُ وتنموَ الغصونُ الجديرةُ بالحياةِ وتجودَ غلالُها اقتضى إعمالُ آلةٍ حديديةٍ تفصلُ الضعيفَ واليابسَ وتريحُ الشجرَ منهما وبما أَنَّ هذا العملَ يقتضي لهُ مزاولةً واختباراً حتى لا يقعَ القطعُ على ما يجبُ لهُ البقاءُ ويُعطَى البقاءُ لما يجبُ قطعهُ استدعيتُ رجلاً امتهنَ[1] هذهِ الصناعةَ فقامَ بعملهِ كما رأَيتم

فلا تحسبوا أَنَّ الشجراتِ قد أُصيبت بخسارةٍ وأَنَّ جمالها قد تشوَّهَ بل احسبوا أَنها خلعت ثياباً دبَّ البلى فيها وتهيَّأَت لقبولِ ثيابٍ جديدةٍ ذاتِ جمالٍ فائقٍ

(١) اي اتخذها مهنة . والمهنة العمل القانوني للارتزاق

وأَمَّا الغُصونُ التي قُطعت فلا تَظنُّوا أَنهُ لا فائدةَ لها بعدُ لأَنها انسلَخَت من أُصولها فسأَضعُها في جانبٍ من الحديقةِ حتى تَيبَسَ جيداً ثمَّ أَحفظُها للوَقدِ في الشتاء

هذا ما جرى ويجري من المُشاهَداتِ البسيطةِ وهي تمثّلُ لنا حِكمةَ اللهِ التي يهتدي اليها كلُّ من لم يغمِضْ بصيرةَ عقلِهِ فيراها بهيئاتها الحقيقيَّة

يا بَنِيَّ : انَّ العالَمَ بُستانٌ كبيرٌ والأُممَ فيهِ كشجراتٍ وافرادَ العالمِ كأَغصانٍ وبعضُ الناسِ ثمارُهم جيّدةٌ فهم صالحونَ وبعضُهم بلا ثمارٍ جيدةٍ فهم غيرُ صالحين

وإِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بُستانيُّ العالَمِ الخبيرُ فيعرِفُ ما هوَ أَهلٌ للحياةِ وما ليسَ بأهلٍ . ولذلكَ يستخدِمُ بحِكمتهِ دَواعيَ الرُّقادِ الوقتيِّ المعروفِ بالموتِ فيقتطفُ اغصاناً عديدةً من كلِّ أُمَّةٍ تارةً برُجوعِ الرُّوحِ الى خالقِها وانحلالِ الجسدِ عن شيخوخةٍ اومرَضٍ وتارةً بالأَوبئةِ التي تقتطِفُ العددَ الكثيرَ

واذا فسدَتِ المدينةُ بأَسرِها كما نجِدُ الشجرةَ قد يبِستَ أَرومتُها فإِنهُ تعالى يستخدمُ غضَبَ السماءِ عليها ونارَ الأَرضِ لإِبادتِها كما أَحرقَ سدومَ وعمورةَ في عهدِ ابراهيمَ أَبي الآباءِ وكما سمحَ أَن يبتلِعَ البحرُ بعلَّةٍ برُكانيةٍ مدينتَي هركالومَ وبومباي

الرومانيتين (في ايطاليا) ومدُنًا كانَ موقعُها بقربِ قرطاجنَّةَ الافريقيَّة

فكما تُشاهدونَ الآنَ في الحديقةِ أَرومةً يابسةً وغُصناً أَخضرَ ذا ثمراتٍ وغُصناً بلا ثمرٍ لٰكنَّهُ مكتسٍ بأَوراقِهِ الجميلةِ وقد قُطِعت جميعاً بيدٍ خبيرةٍ لاختيارِ بقاءِ الأَنسبِ وللحصولِ على الهيئةِ الفُضلَى كذلكَ تجدونَ المُستقدَمينَ الى ديارِ الآخرةِ مؤَلَّفينَ منَ الشيخِ العاجزِ التي صارتِ الحياةُ حملاً ثقيلاً يُزعجُهُ. والكهلِ الذي لهُ البنونَ. والشابِّ الذي لا يزالُ في شبابِهِ الناضرِ. والطفلِ الذي لم يزَل زهرةً يفوحُ منها أَرجُ المسرَّاتِ لأَفئدةِ والدَيهِ واشقَّائِهِ وشقيقاتِهِ

إنما بينَ الأَمرينِ فارقٌ عظيمٌ بقدرِ ما بينَ حياتَي الشجرِ والبشرِ منَ البَونِ (١) الشاسعِ في أَهميَّةِ الوُجودِ. فتشذيبُ الأَشجارِ يُدرِكُهُ العقلُ الانسانيُّ فيُجريهِ في أَوانِهِ المناسبِ. أَمَّا تشذيبُ الأُممِ والعيالِ فممَّا هوَ خاصٌّ بمعرفةِ اللهِ ولا يعرِفُ زمنَهُ المُناسبَ الاَّ اللهُ عزَّ وجلَّ. ولا عجَبَ فانَّ طبيعةَ الشجرةِ قاصرةٌ جدًّا عن طبيعةِ الانسانِ فاستطاعَ الانسانُ أَن يُدرِكَ شؤُونَ ما دونَهُ وتعذَّرَ عليهِ أَن يُدرِكَ

(١) الفرق

شؤونهُ جميعاً لاقتضاء أن يكونَ المُشذّبُ لهُ اقتدارٌ أسمى جدًّا من المشذَّبِ في كلِّ أدوارهِ والانسانُ مهما علا يظلُّ بحدِّ نفسهِ انساناً وليسَ فوقَ حكمتهِ البشريَّةِ الاَّ حكمةُ اللهِ التي هيَ الحكمةُ الحقيقيةُ منها مصدرُ الكائناتِ واليها مرجعُها وهيَ التي تُنيرُ عقولَ رجالِ التُّقى وتُوحي اليهم بحكمةٍ سماويَّةٍ ليعلّموا الناسَ ناموسَ العليِّ ويهدوهم الى المنهجِ الذي يُرضيهِ

إذن لا تتذمَّروا اذا رأيتمْ من أحكامِ اللهِ ما لا تستطيعونَ إدراكَهُ وظلُّوا معتصمينَ بحبالِ التديُّنِ والرَّجاءِ الحيِّ واثقينَ ان مراحمَهُ تعالى تقودُكم الى ما هوَ أصلحُ وتخوّلُكم بالشدائدِ التي تعرضُ عليكم بركاتٍ ونعماً لا تُدركونَ مقدارَها

واعلَموا أنَّ التشويهَ الذي يعرو الأشجارَ حينَ قطعِ ما يجبُ قطعُهُ هوَ باعثُ زيادةِ نموِّها وغزارةِ حملِها أي هوَ باعثٌ لنموِّ جمالِها الحقيقيِّ لأنَّ الثمارَ الجيّدةَ الوافرةَ هيَ جمالُ الشجرِ الحقيقيِّ فقياساً على ذلكَ ثِقوا أنَّ النكباتِ التي تنتابُنا بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ تزيدُ في نموِّنا متى جازت وجاءَ على أثرِها دورُ الإنماءِ

فلتكُنْ ثِقتُنا باللهِ فوقَ كلِّ ثِقةٍ وأملٍ سواءٌ كُنَّا في هناءٍ او شقاءٍ

الفصل الرابع عشر

تفرُّع العيال

احسان معاملة الخادم يدعوهُ الى الخدمة الحسنة . طريقة تلقيح الاشجار . لماذا يجري التلقيح . فضل المعلّم . كلمة في من يتبنى اولاداً فقراء . الاعمال الكبيرة في بدئها . الشاب في استقلاله عن ابويه . الاهتمام بالايتام واعداد العيال من فروض الكهنة . من هو الكاهن الحقيقي

« ما اعظم فضل المعلّم الذي يغرسُ كلمتهُ في قلوب الاطفال نقية ، فتكون ثمراتها خيراتٍ ابدية »

يا أيُّها الأستاذُ كُن عارِفاً ... كَرامةَ النُّعمى التي نِلتَها
فأَنتَ من إحسانِ ربِّ الورى ... أُقمتَ بُستانيَّ رَوضٍ زها
فأُغرِسْ ببُستانِ العُقولِ التُّقى ... والسيرةَ الفُضلَى ورَقِّ النُّهى
تلكَ غِراسٌ حَمْلُها غِبطةٌ ... خالدةٌ ليسَ لها مُنتهى
فأَحسِنِ الغَرسَ لكي تَجتَنِيْ ... في المَوقِفِ الأَخيرِ مايشتَهى
يا سعدَ نَفسٍ تجتَني حينَما ... تأْتي الى الحَشْرِ رِضى رَبِّها

إحسانُ المُعامَلةِ يدعو المُستَخدَمَ الى إحسانِ الخدمةِ والى تَحيُّنِ أَحسنِ الاوقاتِ مُناسبةً لإتمامِ العملِ بمُنتهى العِنايةِ

والنَّشاط . لذٰلكَ ما لبثَ مُشذّبُ الأَشجارِ أَن عادَ بعدَ أَيامٍ قليلةٍ وفي حقيبتِهِ كميّةٌ من حبوبِ بعضِ الأَشجارِ النادرةِ الوُجودِ والطيّبةِ الجَنى يَندُرُ الحصولُ على مثلِها وبعدَ الاتّفاقِ الذي تمَّ بينَهُ وبينَ ربّةِ المنزلِ بغيرِ مُشاحّةٍ (١) أَخذَ يُلقّحُ بعضَ الاشجارِ التي كانت عقيمةً (بعلية)

وطريقةُ التلقيحِ معروفةٌ هي أَن يُجرَحَ الجذرُ من مكانٍ لا يزالُ رَطْباً جرحاً يمتدُّ الى آخرِ اللِحاءِ ويُوضَعُ تحتَ اللِحاءِ حبّةٌ جديدةٌ مأْخوذةٌ من جذرِ شجرةٍ ناميةٍ ويُربَطُ موضعُ الجُرحِ بلِحاءٍ يَحفظُ الحبّةَ فيأْتي بواسطةِ هٰذا التلقيحِ ماءُ حياةٍ جديدةٍ الى الشجرةِ وتأْتي الثمارُ من نوعِ ثمرِ الحبّةِ التي جرى التلقيحُ بها . ثمَّ عمدَ الى فروعِ بعضِ الشجراتِ فاستخرجَها باحتراسٍ ووضعَها في أَحواضٍ أُعدَّت لها قبلاً

وكانَ الاولادُ يرَونَ ذلكَ وهم سكوتٌ فلمّا تمَّ ذٰلكَ العملُ تناولَ جُعالتَهُ (٢) ومضى . فسأَلَ الاولادُ أُمَّهم عن الغايةِ من العملِ الذي رأَوهُ فأَخذت تُوضحُ لهم ذٰلكَ قائلة يا أَولادي إنَّ كثيراً من الأَشجارِ يكونُ بريّاً قد أُهملت

(١) اختلاف (٢) اجرة العمل

العِنايةُ بهِ فقَدَ أفضلَ ما يُرجَى منهُ وهوَ الثمرُ او باتت ثِمارُهُ على غيرِ ما يُستَحَبُّ منَ الجُودةِ فيُرادُ استِخراجُ ثمرٍ جديدٍ منهُ فيُلقَّحُ بأَنْ يُؤتَى بحبَّةٍ من شجرةٍ جيدةِ الثمرِ تكونُ تلكَ الحبَّةُ نامية في منبتِها فتُدخَلُ في الشجرةِ ويرِدُ بدُخولِها مادَّةٌ جديدةٌ فتأتي الثمارُ منَ النَّوعِ الذي أُخِذت تلكَ الحبَّةُ منهُ

فهٰذا يمثّلُ لنا أولاً تأثيرَ المبادىء الشريفةِ التي تُوضَعُ في القُلوبِ فإنَّ الحبَّةَ على صِغَرِها قدرتْ أَنْ تقومَ بذاكَ التأثيرِ الكبيرِ وكذٰلكَ المبدأُ الشريفُ الذي يدخُلُ في النفوسِ يستطيعُ أَن يُثمِرَ ثماراً مشكورةً تُجنَى منها الفائدةُ على التوالي فما أعظمَ فضلِ المعلّمِ الذي يغرِسُ كلمتَهُ في قُلوبِ الأطفالِ نقيَّةً فتكونُ ثمراتُها خيراتٍ أبدية

ويمثّلُ لنا حالةَ عيالٍ كثيرةٍ شاءَت حكمةُ اللهِ أَنْ لا تُرزَقَ بنينَ فاذا أحسنت الى ولدٍ يتيمٍ أَوفقيرٍ وتبنَّتهُ بضمِّهِ اليها يكونُ شبيهَ الحبَّةِ الصغيرةِ التي ترَونَها قبلَ إدخالِها في الشجرةِ ليستْ شيئاً ولٰكنَّها بعدَ إدخالِها وتفحُّصِ ما يرِدُ عنها تجدونَها ذاتَ التأثيرِ الكبير

إنَّ تبنّيَ الطفلِ اليتيمِ أَوِ الفقيرِ الوالدَينِ اذا صدرَ ممَّن

لهُ مِلءُ القُدرةِ عَلَى تربيتِهِ عملٌ شريفٌ عائدُهُ الخيرُ العظيمُ عَلى المتبني والمتبنَّى معاً كما أنَّ حياةَ الحبَّةِ الناميةِ كانت ذاتَ فائدةٍ للشجرةِ والحبَّةِ معاً . فالشجرةُ رُفِعت من أن تكونَ في مَصَفِّ الفاقداتِ الفائدةِ الثمريةِ التي لا خيرَ بها الاَّ أنْ تُقطَعَ وتُلقى في النَّارِ فصارت ذاتَ فائدةٍ ثمريَّةٍ وغدتِ الرَّغْبةُ في حياتِها لثمرِها لا لخشبِها ولفائدةِ الغيرِ معَ فائدةِ النفسِ وبالتالي لكي تَبقى لا لكي تُزالُ . والحبَّةُ نُقلت من موضعٍ نُموُّها فيهِ ضيِّقٌ او نُموُّها غيرُ مُناسبٍ وحلَّت موضعاً لها أن تتوسَّعَ فيهِ توسُّعاً حسنَ العاقبةِ فتخدُمَ الوجودَ خدمةً مشكورةً

وكذلكَ شأنُ متبني اليتيمِ اذا كانَ لا نسلَ لهُ فانَّ هٰذا العملَ ينقلُهُ من عِدادِ الأعضاءِ الغيرِ العاملةِ في إنماءِ الوجودِ الى الاكتتابِ في عِدادِ الأعضاءِ العاملةِ في إنماءِ الوجودِ وإن كانَ ذا نسلٍ ورأى أنَّ سعةَ مُرتزَقِهِ تُخوِّلهُ أن يتبني أبناءَ الآخرينَ من ذوي الاعوازِ [1] فهوَ كالعبدِ الأمينِ النشيطِ الذي قالَ الربُّ يسوعُ أنهُ أعطاهُ سيِّدُهُ خمسَ وزناتٍ فاستثمرَ منها خمسَ وزناتٍ فاضافَ اليهِ وزنةً أُخرى أي ان أجرَهُ السماويَّ يزدادُ . وبعدَ أن يكونَ العاقرُ الغنيُّ أشبهَ

(١) الفقر

بكنز ذهب مرصود حتى يفتح باب القبر مغالقه ليتناول اقاربه ما أدّخرت لهم القرابة بتعبه يصبح هيكلاً للمبرّات يفوح منه وبه بخور العواطف النقيّة . وأما اليتيم فيكون في محيط لا يخوّله تغذية عقله بالمعارف الجليلة والفنون الجميلة ولا تغذية جسده كما يجب ليخدم الله والانسانيّة اتمّ خدمة فينتقل الى متّسع يخوّله غذاء الروح والعقل والجسد فيتمعّن بكلام الله الحيّ وهو غذاء النفس الناطقة ويكتسب من المعارف ما يرجى به خدمة الانسانية بالأمانة والنشاط ويكون له من صحّة البنية ما أهّله لإحراز ما أحرزه وأعدّه للقيام بالأعمال الخطيرة

فهذا العمل الذي تجريه يد الانسان بصمت حينما تطعّم الشجر هو تمثيل أهمّ مبادىء النجاح العمومي فانه يرينا بصورة عملية إبراز المبدإ المسيحي القائل «إحملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمّموا ناموس المسيح» (غلا ٦: ٢٢) إبرازاً يؤكّد لنا أنّ النجاح به يشمل المحسن والمحسن اليه معاً في عالمنا الفاني فضلاً عما أعدّ في الآخرة من الثواب العظيم لكلّ من أحسن التصرّف في ودائع الله التي ألقاها في رُوعه[1] أو

(١) قلبه

وضعها بين يديه

وأما ما رأيتم من اقتطاع فروع ووضعها في أحواض خصوصية فما ذلك العمل لا لتنمو تلك الفروع مستقلة بنفسها حتى تكون في المستقبل أشجاراً على حدة وهي تمثل لنا بذلك أموراً منها

اولاً . ان الأعمال الكبيرة تؤخذ أولاً فروعاً صغيرة من أعمال كبيرة فيعتنى بها عناية خصوصية لتنمو وتكبر وتصير عظيمة مع الايام . فلا تظنوا إذن أن الأعمال العظيمة تصعد فجأة الى قمة الكمال بل هي تعظم شيئاً فشيئاً مع بذل العناية التامة ولا يرجى من الفروع ثمرة في حال اقتطاعها والاهتمام بها بل بعد مرور زمن غير قليل عليها وصرف عناية متواصلة بها وكذلك لا تثمر الأعمال المعاشية خيراً كما يرجى بسرعة بل مع مواصلة العناية ومرور وقت طويل

ثانياً : ان الشاب الذي ينفصل عن ابويه لينشىء عائلة جديدة يكون هو رأسها يحتاج في بدء انفصاله الى عناية جزيلة لتصير له عروق في ثرى النظام العائلي فتمتص له ماء الحياة وتحفظ كيانه . فيا أولادي : اذكروا هذا حينما تصيرون شباناً واعرفوا أن من عمد الى الاستقلال عن الوالدين يجب

أَن يكونَ تمسُّكُهُ بالدينِ القويمِ والأَدبِ الحقيقيِّ شديداً ليمنحَهُ اللهُ تعالى أَسبابَ النموِّ فيرسُخَ في أَرضِ الوجودِ ويجودَ عليهِ اللهُ بغُصونِ البنينَ الصالحينَ ولكي يستقيَ من مراحمِهِ الالهيةِ فيتتوَّجَ بثمارِ الأَعمالِ المبرورة

وقد رأَيتم يا أَولادي أَنَّ التَّلقيحَ وإِعدادَ الغُصونِ لتكونَ أَشجاراً هما مهمَّةٌ للمختصِّ بالزراعةِ والواقفِ على أَسرارِها وأَسبابِ نموِّها وكذلكَ الاهتمامُ بالأَيتامِ وإِعدادُ العيالِ الجديدةِ هما من فُروضِ الكهنةِ فهُمْ أُقيموا بدعوةٍ من اللهِ ليعتنُوا بالأَيتامِ ويهتمُّوا بإِنماءِ الجنسِ البشريِّ لتكثُرَ أَعضاءُ المسيحِ وهياكلُ الرُّوحِ القُدُسِ ويردُ من أَعمالِ البشرِ ما يستنزِلُ بركاتِ السماوات

فيا ولدي داودَ — أَنتَ من الآنَ منصرفٌ الى الكهنوتِ بأَقوالِكَ وأَميالِكَ فاعلَم ما سأَقولُهُ لكَ واحفظْهُ لتجريَ عليهِ في مُستقبلِ حياتِك

الكاهنُ يا ولدي زارعٌ روحيٌّ فعليهِ أَنْ يضعَ في القلوبِ الفارغةِ كلمةَ الخلاصِ لتأْتيَ بأَعمالِ البرِّ التي هيَ الثمرةُ الشهية. عليهِ أَن يبذُلَ كلَّ جهدٍ ليرفعَ الطبقةَ الضعيفةَ

آداباً حتى أنها تماثل العالية بمكانتها الأدبية لا بثروتها الوافرة . عليهِ أن يسعى لإنماء الوجودِ البشريّ بحكمةٍ ونشاطٍ . ولا يبالي بمشاقّ تعترضهُ . عليهِ ان يسعى للبنيانِ لا للهدمِ ولحفظِ نظامِ الدينِ على جمالِ وضعهِ المقدّسِ لا لكي يتخذ كهنوتهُ آلةً يشوّههُ بها جمالَ الكنيسةِ ببثّهِ روحَ المفاسدِ بين اعضائها وانتزاعِ أعضائها للموتِ لا للحياةِ ولاسترضاء الناسِ بدلاً من استرضاء الله

إننا سنشكرُ العاملَ الذي لقّحَ الاشجارَ كلّما تناولنا ثماراً شهيّةً من تلكَ الأشجارِ البرّيّةِ التي كانت بلا ثمرٍ . وسنمدحهُ كثيراً حينما نرى هذهِ الفروعَ قد صارت أشجاراً ذاتَ غصونٍ وثمارٍ . وهكذا يشكرُ الكاهنُ حينما يظهرُ تأثيرُ تعليمهِ او مسعاهُ في إسعادِ يتيمٍ او ردّ شاردٍ الى سبيلِ الحياةِ المستقيمِ ويمتدحُ حينما تنمو فروعُ برّهِ وغيرتهِ على الشعبِ حتى تصبحَ أشجاراً كبيرة

فاعلم إذنْ كرامةَ الدعوةِ التي يبثّها اللهُ في قلبكَ ولا تملْ عنها يميناً او يساراً أخذاً بقولِ كلمةِ الآب « ليس احدٌ يضعُ يدهُ على المحراثِ ويلتفتُ الى الوراءِ يصلحُ لملكوتِ

اللهِ » (لو ٩:٦٢)

ولما أَتمَّت السيدةُ اليصابات كَلِمتَها رأَت أَمارات الاِهتِمامِ والاِقتِناعِ على وَجهِ داودَ فسُرَّت وعادت بابنائِها منَ الحديقةِ الى المنزِل

الفصل الخامس عشر

العمل الحسن يرفع عنه نقاب الخفاء

بماذا يقع الإهداء . المهذب يعترف بخطإِهِ . المعرفة والعمل . كيفية استخراج الكمأة . يجب ان يكون الحكم غير مبني على الظواهر الخارجية مجردة . كم قلبٍ طاهر في ثوب بالٍ . جمعيات البر وانتدارها على عمل الاحسان . واجب الوالدة

« ان السيدة التي تربي بنيها بشهادِ الإِرشادِ الطيّبة لهي رسولٌ سماويٌ يحملُ كلمةَ الحياةِ من لدن الله الحي »

أَنتِ يا أُمُّ قد أَقامَكِ رَبٌّ ... مَلَكَ النُّورِ يحرُسُ الأَطفالا

فإِليهِم قدِ انصرفتِ اهتِماماً ... ثمَّ عنهم ستُسأَلينَ سؤالا

فاذا ما أَذَقتِهِم من شِهادِ[1] الـ ... ـرُّشدِ ما يُنشِئُ التُّقى والكَمالا

(١) جمع شَهْد

وأَنرتِ العُقولَ من خشيةِ المو ... لى فلم يَنهجوا رِدًى وضَلالا
طَوَّبتكِ الأَبناءُ جيلاً فجيلاً ... وبذِكْراكِ سيَّروا الأَمثالا
ورآكِ الوجودُ فيما تَخيَّرْ ... تِ الصفاتِ الحِسانَ والأَفعالا
كرَسولٍ من السماءِ أَتى يحـ ... ـملُ فيضَ الحياةِ منهُ تعالى
فتَعيشينَ عيشةً ذاتَ برٍّ ... بوَقارٍ وحِشمةٍ تتَلالا
وعقيبَ الدنيا يُحِلُّكِ منَّ اللـ ... ـهِ في موطِنِ النعيمِ ظِلالا
فبدُنياكِ تكرُمينَ حياةً ... وبأُخراكِ تسعدينَ مآلا

الإهداءُ يقعُ اما بالنفيسِ الذي يُحفَظُ لغَلاءِ ثمنِهِ ولاختزانِهِ لمُستقبَلاتِ الأَيامِ واما بالبَديعِ الجَميلِ لبَهاءِ رَونقِهِ وتأْثيرِهِ بالنفوس . واما بالنادرِ او الجديدِ وان لم يكن غالياً ولا بَديعاً لأَنَّ النَّفسَ مُتشوِّقةٌ الى كلِّ ما هوَ نادرٌ او جديدٌ ولذٰلكَ جاءَ في الامثالِ المشهورة «لكلِّ جديدٍ حلاوة»

وحدثَ انَّ «روزي» شقيقةَ اليصاباتَ ساحت في الشَّرقِ زَمناً وأَتت بكثيرٍ مما تيسَّرَ لها الحُصولُ عليهِ فلما قدِمت الى نيويوركَ حلَّت في منزلِ شقيقتِها فقُوبلت بجَفاوةٍ وانست بها اليصاباتُ فزالَ جانبٌ منَ الوَحشةِ لغيابِ ربِّ المنزلِ الذي كانت رسائلُهُ مُوجزةً وغيرَ كثيرةٍ ولا قليلةٍ

فأَخذت روزي تُخرِجُ من صناديقها ما جلبَتْ منَ الطُّرَفِ وكُلُّ ذٰلكَ ممَّا لهُ منظرٌ رائقٌ إتّباعاً للذوقِ الاميركيِّ المستحسنِ الظواهرِ حتى يبلُغُ ثمنُ أَصونةِ بعضِ الانواعِ ما ينيفُ على ثمنِ ذٰلكَ النوعِ وحتى بلَغت نفقاتُ الاوراقِ المستعملةُ أَصونةً في سنة ١٩٠٤ مبلغَ خمسةَ عشرَ مليونِ ريال

وكانَ في جُملةِ ما وعتهُ حقيبةٌ معَها نوعٌ من انواعِ الفُطرِ البرّيِّ دَميمُ المَنظرِ جافٌّ تنبو العينُ عن مُشاهدتِهِ اسمهُ الكَمأَةُ فلمَّا رآهُ الاولادُ غابَ عنهم باعثُ استحسانِ خالتِهم لهُ وسألَها صموئيلُ قائلاً — يا خالتي ما هٰذا الفُطرُ الرديءُ

فقالت كاترين — يا شقيقي لا تَقُلْ أَنهُ رديءٌ فانَّ التسرُّعَ في الحُكمِ يوقِعُ في مَهاوي الزَّلَل

فاعترضَها يوسفُ قائلاً — انَّ حرِّيَّةَ القولِ ناجمةٌ عن انبعاثِ القلوبِ النقيَّةِ للفظِ ما تعتقِدُهُ صحيحاً دونَ مُواربةٍ ولا تعوُّجٍ

فتصدَّت[1] لهُ نقلا وقالت لكنَّ تكلُّمَ الانسانِ عمَّا يجهلُهُ بعبارةٍ تتضمَّنُ القضاءَ المُبرَمَ يدُلُّ على الجهلِ ولهٰذا

(١) تعرَّضت

ارتأت كاترينُ أن يكونَ الكلامُ في جانبِ الاعتدالِ خالياً منَ الحُكْم

فأظهرَ داودُ أنهُ يوافقُ على كلمةِ شقيقتهِ نقلا وقال — إنَّ الكتابَ يعلّمنا أن نسألَ مَن هم أوسعُ خُبرةً منَّا وهذا قولهُ « اسألَ أباكَ فيُخبرَكَ وشيوخَكَ فيقولونَ لكَ (تثنية ٣٢ : ٧)

فنكصَ[1] صموئيلُ ويوسفُ عنِ المُناقضةِ لأنهما وجدوا استشهادَ شقيقهما داودَ مُصيباً وقالَ صموئيلُ — إنني اعترفُ أنَّ حكمي كانَ في غيرِ محلّهِ وقالَ يوسفُ — انَّ الخطأَ الذي ارتكبناهُ هو مُستنزلُ التَّصحيحِ الذي اقتبسناهُ فاعتراضي إذن لم يخلُ من فائدة

فتعقَّبتهُ نقلا فائلةً — أحسنتَ باعترافكَ فانَّ البقاءَ على الخطإِ أقبحُ منَ الخطإِ

وقالَ داودُ — يجبُ ان نعلَمَ هذا ونعملَ بهِ لا ان نعلَمهُ ولا نعملُ بهِ فانَّ المعرفةَ جسمٌ روحهُ العملُ والجسمُ الفاقدُ الرُّوحِ لا خيرَ فيه

وكانت روزي تسمعُ حوارَ[2] الاولادِ باسمةَ الثغرِ فلمَّا

---

(١) أحجم (٢) محاورة

أتموا حوارهم التفتت الى شقيقتها وقالت — يا عزيزتي أين أنا. ألعلني في اريوس باغوس اسمع حوار الفلاسفة

فادركت اليصابات ما في هذه الكلمة من الإطراء الجميل ورأت ان تصرفه الى شقيقتها فقالت — نعم ايتها الشقيقة نحن مجمع جهلة الحقيقة وقد ورد الى مدينتهم رسول الشرق (١) فحدثينا عن الشرق وأنيري مدار كنا بكلمات الحياة التي تلقيتها هنالك ليشرق علينا نور.

وكانت روزي تعلم أن شقيقتها اقوى عارضة منها فنكصت عن ميدان المجاملة وانصرفت الى بيان الحقيقة فقالت — إن عزيزي صموئيل تساءل عن هذا الفطر الذي ليس له منظر فانا أفيده عنه: هذا النوع من الفطر ينمو في البرية تحت الأرض ولا يستدل عليه الا من أمارة خارجية يعرفها جامعوه بالمزاولة (٢). وهؤلاء الجامعون هم من سكان البوادي يخرجون لالتقاطه في اوائل أيام الربيع كما كان قوم موسى يخرجون

(١) الشرق يطلق على سورية والعربية وما وراء ذلك ويراد به المسيح ايضاً ورسول الشرق اي رسول المسيح يراد به بولس الرسول

(٢) هي نمو عشبة لا علاقة لها مع الكمأة لكنها لا تنمو الا حيث تكون الكمأة نامية

لالتقاطِ المَنِّ والسَّلْوى . الاَّ انَّهم يضطرُّونَ الى اُستخدامِ آلةٍ صغيرةٍ لاستخراجِ هذا الفُطْرِ من مَخبإِهِ في قلبِ الأَرضِ التي تكونُ شديدةَ الحرارةِ في الصيفِ ولا يُرجَى أَن يَجودُ فيها نوعٌ منَ الاشجارِ والبُقول

وهذا النوعُ منَ الفُطرِ لا شيءَ يماثلُهُ في لَذَّةِ طعمِهِ وخفَّتِهِ على المَعدَةِ وتغذيتِهِ وسهولةِ تهيئتِهِ للطَّعامِ فيحسُنُ بهِ أَن يُشوَى وان يُسلَقَ وأَن يُصطَنَعَ معَ اللحومِ او الخضراواتِ او الحُبوب

وهوَ يكونُ حينَ استخراجهِ طريئاً فاذا وُضعَ معرَّضاً للشمسِ تيبَّسَ فصارَ صالحاً للبقاءِ زمناً فكانَ من خيرِ ما يَتموَّنُهُ أَربابُ البيوتِ للاقتياتِ في فصلِ الشتاء

فلما اتمَّت روزيه كلمتَها قالت اليصابات — أَعرَفتم يا اولادي ماذا يُعلِّمُنا هذا النوعُ الفطريُّ من واجباتِ حياتِنا — انهُ يعلمنا الامورَ الآتية

اولاً — يجبُ ان لا نحكُمَ على الشيءِ لمظاهرِهِ الخارجيَّةِ فانَّ هذا الفطرَ القبيحَ المَنظرِ هوَ غايةٌ في الجُودةِ طَعماً وفائدةً صحيَّةً فلو أَهملناهُ لِدمامتهِ لخسِرنا فائدةً ثمينةً . والعاقلُ يطلُبُ الفائدةَ من حيثُما تهيَّأَت لهُ ولا يَستنكِفُ منَ الحُصولِ عليها

كيفما كانَ منظرُها الخارجيُّ . فلا تنسوا أنَّ المخلِّصَ جمالَ الوُجودِ تنبَّأَ اشعياءُ النبيُّ عنهُ هكذا « ولا صورةَ لهُ ولا جمالَ فننظُرَ اليهِ ولا منظرَ فنشتهيه » (٢:٥٣) فاعلموا من هذا أنَّ الجَمالَ الحقيقيَّ هوَ جَمالُ الحقيقةِ جَمالُ الداخلِ اي القلبِ ونيَّاتِهِ لا جَمالُ الخارجِ اي الوَجهِ والاطرافِ والصَدْرِ فاطَّرحوا الاعراضَ الخارجيَّةَ وابحثوا عن الحقيقة

ثانياً — انَّ تلكَ الرِمالَ المُحرِقةَ التي لا يُرجى منها خيرٌ قد جاءت بثَمرةٍ من خيرةِ الثمارِ فكانت مِثالاً لكثيرينَ منَ الناسِ لا نَرجو منهم فائدةً للوجودِ على حينِ قلوبُهم تتضمَّنُ منَ المَبادىءِ الصالحةِ والعواطفِ الشريفةِ ما يُعَدُّ من أفضلِ ما يُفيدُ فلا تَستهينوا أحداً ولا تحتقروا ذا حالةٍ فقريَّةٍ فكم قلبٍ نقيٍّ ونيَّةٍ طاهرةٍ في تلكَ الصدورِ العاريةِ والرؤوسِ التي توَّجتها الحاجةُ باكليلِ الشوك

ثالثاً — انَّ معرفةَ محلاَّتِ ذاكَ الفُطرِ قد تخصَّصَ بها فريقٌ من المُنقطعينَ الى الفَلَواتِ وكذلكَ نجدُ أعضاءَ جمعيَّاتِ البرِّ أعرفَ من بقيَّةِ الشَعبِ بالمحالِّ التي يجبُ توزيعُ الصَدَقاتِ فيها فتجتني من قلوبِ أولئكَ البائسينَ الذينَ تمدُّهم بسِلاحِ الحياةِ لمحاربةِ الموتِ فقراً ماديًّا او أدبيًّا ما هوَ خيرٌ من

هذا الفطرِ وادرُّ جدوى للهيئةِ الاجتماعيَّةِ . فمِن اولئكَ الفقراءِ يقومُ الصانعُ الحاذقُ وما اكثرَ العمَّالَ الحاذقينَ من أولادِ الاعوازِ كما يوجدُ المخترعُ الجليل كبطٍّ مخترعِ الآلةِ البخاريَّةِ والمحسنُ الكبيرُ كارنجي الشهيرِ والوطنيُّ الغيورُ المخلصُ كلنكلن والمدبّرُ الحكيم كارستيدس الرئيسِ الاثيني وغارفيلدَ احدِ رؤساءِ جمهوريتِنا وخادمُو الكلمةِ الخلاصيةِ التي انارتِ المسكونةَ بواسطةِ مصفِّ الصيَّادين

فعلينا إذَن أن نُساعدَ لجانَ البرِّ التي زاولتِ البحثَ في طبقاتِ الشَّعبِ ذاتِ الحاجةِ حتى صارَ لها ملءُ الخُبرةِ في استخراجِ النيَّاتِ السليمةِ والهممِ الكريمةِ من قلوبٍ يريدُ الشقاءُ سحقَها

واذا كانَ هذا الفطرُ المخبوءُ في بريَّةٍ قاحلةٍ تحتَ رمالٍ محرقةٍ لم يذهبْ ضياعاً بل هدى اللهُ الناسَ الى استخراجهِ والاستفادةِ بهِ فهل تظنُّونَ أنَّ المكتشفاتِ المفيدةَ التي تتوفَّقون بمنِّ اللهِ عليكم ومددهِ لكم ان تعثروا عليها ويعاكسُكم الزمانُ في إبرازِها والاستفادةِ منهما ستموتُ ويذهبُ تعبُكم بها على غيرِ طائلٍ . معاذَ اللهِ ان كُنتُم تريدونَ المنفعةَ لا المجدَ الباطلَ . فالعثورُ على هذا الفطرِ يدلُّنا انَّ اللهَ لا يلبثُ أن يخرجَ الى الوجودِ ما هوَ صالحٌ منها لانهُ عزَّ وجلَّ يريدُ ان يكونَ

سِراجُ اعمالِكم عَلَى المَنارةِ ليرى الناسُ نُورَكم ويمجّدوا أباكم السماويَّ

فلمَّا أَتمَّت اليصاباتُ كلمتَها ظهرَ على الاولادِ سماتُ الاقتناعِ القلبي وعجبت روزي بحسنِ الطريقةِ التي اتخذتها شقيقتُها لغرسِ المبادِىء القويمةِ في قلوبِ بنيها فلمَّا خلَت بها قالت

— إعملي يا شقيقتي في كرْمِ الربِّ بهذا النشاطِ وهذهِ الحكمةِ وحقّقي كلمةَ من قال — «انَّ السيدةَ التي تُغذّي بنيها بشهادِ الإرشادِ الطيّبةِ هيَ رسولٌ سماويٌّ يحملُ بشارةَ الحياةِ من لدُنِ اللهِ الحيِّ الذي لم ترَ عينٌ ولا سمعت اذنٌ ولا خطرَ في بالِ إنسانٍ ما اعدَّهُ» (١كو٢ : ٩) لحاملي كلمتِهِ ومبشّري رحمتِه

فاجابتها اليصابات — دَعي الإطراءَ يا شقيقتي فهذا واجبُ الوالدةِ ولا إطراءَ على الواجبِ أَما سمعتِ قولَ الرسولِ بولسَ «ان كنتُ أُبشّرُ فليسَ ليَ فخرٌ إذِ الضرورةُ موضوعةٌ عليَّ فويلٌ لي ان كنتُ لا أُبشّرُ» (١كو٩:١٦)

الفصل السادس عشر

في سابق معرفة الله

الزنبق مورد صدوره من طرابلس الشام . قوّة الاستنتاج بالدلائل . طريقة الاجتهاد وطريق الاقتباس . سابق معرفة الله . وحدة الشبه بين الابرار والاشرار في سن الصغر . مقدار فضل النقاوة . انّ الله اعطى للاغنياء والفقراء نعمتي الايمان والاعمال الصالحة على السواء . ان الله يقبل من الفقير احسانهُ القليل بمثابة الاحسان الكبير من الغني

« ان الله عزّ وجلّ ساوى بين عبادهِ جميعاً في اعطائهم الوسائلَ الخلاصية والمراحمَ الربانية ، وذلك منتهى العدالة وغاية الرحمة »

جَلّ ربُّ الورى قديراً رحيماً شَرعهُ العدلُ ما عراهُ التواءُ
فهوَ حقاً ابو الأنامِ صِغاراً وكِباراً وهمْ لهُ أبناءُ
غيرَ أنّ الأنامَ قد خالفوا اللـهَ فوافى على الأنامِ الشقاءُ
ورأى قلبهُ الرؤوفُ بهمْ رِفقاً وبالنسلِ تَرأفُ الآباءُ
فحباهم وسائلاً لخلاصٍ مَن ينلهُ تمّت لهُ النعماءُ
يا لها من وسائلٍ هانَ أن يحـ ـظى بها الأغنياءُ والفقراءُ
نَهجُها واضحٌ لمتّبعيها ولديها كلُّ الأنامِ سواءُ

لا يَرَى ميزةً بها العِلْمُ والنُّبـ ... ـلُ وجاهٌ وقوّةٌ وثَراءُ
انَّ ذا منتهى العَدالةِ والرَّحـ ... ـمةِ فانحوا الخَلاصَ يا عُقلاءُ
انَّ مَن أبصروا الخَلاصَ يميناً ... ويَحيدونَ يَسرةً جُهَلاءُ
انَّ مَن يُحرِزونَ مالاً وما بالوا ... بِحَرْزِ المَبرّةِ الفُقراءُ
انَّ مَن يَملكونَ بِرّاً ولم يَطّلبُوا ... مُلكَ ثَروةٍ أغنياءُ
انَّ نَهجاً يَهدِي الى ما بهِ مَرْضـ ... ـاةُ رَبِّ السَّماءِ نَهجٌ سَواءُ
إنَّ هذا نُورُ الحقيقةِ عَيناً ... فاستَنيروا يا أيُّها الأَمْلاءُ

حيَّا اللهُ طرابلسَ الشام وان شطَّ مزارُها فانَّها ذاتُ ثِمارٍ شهيَّةٍ وعُطورٍ ذكية وكأنَّ أزهارَها قد اكتَسبت من أخلاقِ سُكّانِها النَّفْحةَ العنبريَّةَ والمناظرَ البهيةَ فلذلك تُحمَلُ منها أُصولُ[1] الزَّنْبقِ البديعِ النَظرِ الذكيِّ الأَرَجِ الى أقطارِ الدُّنيا لتكونَ زينةَ الحدائقِ وبهجةَ القلوبِ وقرَّةَ العيون

وكانتِ السيدةُ روزي قد اصطحبت شيئاً من أُصولِ الزَّنْبقِ فلمَّا رأَت عِنايةَ شقيقتِها بالحديقةِ أهدَتها بعضَ تلكَ الأُصولِ وارادت ان تزرَعها بنفسها . فلمَّا حانَ عَصرُ النهارِ انحدَرتا معاً الى الحديقةِ وتخيَّرتا محلاً مُناسباً وعزَقتا أرضَهُ ثمَّ وضعتا الأُصول

وكانَ الاولادُ يرَونَ ما جرَى وخفيَ عليهم نوعُ ذاكَ

(١) بصلات

المزروعِ فقالَ صموئيل — أَنا لا اشكُّ أَنَّ والدَتنا اُختارت هذا النوعَ منَ البَصَلِ لأَنَّهُ عَلَى ما يَظهرُ لي ليسَ ذا رائحةٍ كريهةٍ كالبصَلِ المَعروف

فقالَ يُوسُف — اظُنُّ أَنَّ هذا المزروعَ ليس بَصلاً لأَنَّ الاختِلافَ في الرائحةِ قد يكونُ اختِلافاً في الصِنفيةِ

فاُقْتفتهما كاترينُ قائلةً — يلوحُ لي أَنَّ خالتَنا لم تتكبَّد مَشقَّةَ إِحضارِ هذا النَّوعِ من بلادٍ بَعيدةٍ الاَّ لأَنهُ ليسَ من البَصَلِ المَعروفِ لأَنَّ العاقِلَ لا يُنفِقَ من تَعبِهِ وعِنايتهِ عَلَى ما لا يَقتَضي لهُ بَذلُ ذاكَ التعبِ وتلكَ العِنايةِ فلا بُدَّ أَن تكونَ ثِمارُهُ ذاتَ امتِياز

فقالت نقلا — ان والدَتنا لا تُعطي فُسحةً في أَجمَلِ مَوضعٍ منَ الحديقةِ لنَوعٍ غيرِ جيِّدِ الرائحةِ فكلُّ شيءٍ لهُ محلٌّ وهذا محلُّ الرياحينِ الجميلةِ المَنظرِ الفوَّاحةِ الأَرَج

ولمَّا قالت نقلا هذهِ الكلمةَ نظرتْ روزي الى اليصاباتَ نَظرةً مَفادُها أُنظري ما أَوفرَ ذكاءَ نقلا

وأَمَّا داودُ فكانَ يَسمعُ ما يَلفظُهُ إِخوتُهُ وهو ساكتٌ فقال أَخيرًا — يا أَعزَّائي دَعُوا الظُّنونَ فوالدَتُنا ستُنبئُنا عمَّا زرعتْ

وتُفيضُ علينا كلمةَ نُصحٍ . والإنتظارُ على أملِ استفادةِ الحقيقةِ من مصدرِها خيرٌ من الرَّجمِ بالظَّنّ

فوقعت كلمةُ داودَ من ثقلا موقعَ المُنتقدِ فالتفتت اليهِ وقالت — انَّ أعمالَ الفكرةِ وراءَ إدراكِ الحقيقةِ وإبرازَ الخواطرِ التي تحومُ حولَ النُقطةِ الجوهريَّةِ من كلِّ موضوعٍ أمرانِ يزيدانِ ملكةَ الإدراكِ قوَّةً ويبعثانِ العزيمةَ على اعتمادِ النفسِ وراءَ استقصاءِ الحقائقِ المجهولةِ فلا تثريبَ[1] علينا فيما تخيَّرناهُ كما لا تثريبَ عليكَ في ما تخيَّرتَهُ لانَّ المبدأينِ حسنانِ الاَّ انَّ الأوَّلَ طريقةُ المجتهدِ فهوَ أفضلُ جدًّا منَ الثاني طريقةِ المُقتبِس[2]

فاستحسنَ داودُ دِفاعَها وأرادَ ان لا يكونَ لهُ موقفُ المَغلوبِ فقالَ — إنَّ الاجتهادَ مشروطٌ بأنهُ صادرٌ عمَّن كُلَّت معارفُهُ لاعمَّن لا يزالُ مُبتدِئًا فهوَ طعامُ الأقوياءِ لا الضُعفاءِ أمثالِنا وقد قالَ الرسولُ بولسُ « سقيتُكم لبَنًا لا طعامًا لانكم لم تكونوا بعد تستطيعونَ » (١ كو٣:٢) ثمَّ إنَّ الاجتهادَ يقعُ حيثُ يتعذَّرُ الحصولُ على معرفةِ الحقيقةِ الاَّ بإجهادِ الفكرةِ

(١) ملام (٢) المجتهد من يدرك الخفيَّ من تلقاء نفسه ببحثهِ والمقتبس من ياخذ الحقيقة عن سواه

لا لأَمرٍ مثلِ هذا « لانَّ العاقلَ لا يُنفِقُ من تعبِهِ وعنايتِهِ على ما لا يقتضي لهُ بذلُ ذاكَ التعبِ وتلكَ العناية » كما قالت كاترين

فاستحسنتِ الوالدةُ والخالةُ جدالهما الذي دلَّ على تأدُّبٍ في الخطابِ ورأَت اليصاباتُ بتَّ حبلِ مُناقشتِهم فقالت — أَحسنتم يا أَولادي في آرائكم فانا سأُوضِحُ لكم عنِ الأُصولِ التي تباحثتُم في شأنِ معرفتِها فهيَ أُصولُ زهرةِ الزَّنبقِ التي ضربَ السيدُ المسيحُ لهُ المجدُ مثلَ الجمالِ بها حينما قالَ — تأمَّلوا زنابقَ الحقلِ كيفَ تُثمِر . لا تتعبُ ولا تغزِلُ ولكن أقولُ لكم إنهُ ولا سليمانَ في كلِّ مجدهِ كانَ يلبسُ كواحدةٍ منها » (مت ٦ : ٢٨) وهذهِ الزَّهرةُ من انواعِ الرياحين تُؤخَذُ رمزاً لبياضِ القلبِ وطيبِ الاخلاقِ فهل تعلَمونَ ماذا تُمثِّلُ لنا

تروَنني يا اولادي قد نظمتُ هذهِ الزهرةَ منَ الآنَ في جدولِ الرياحين العاطرة = كما قالت ثقلا = معَ أَنَّ جمالها لم يظهرْ ورائحتُها لم تفُحْ . وما ذلكَ الاَّ لعلمي الأَكيدِ بما سيكونُ منها في المُستقبلِ . فهذا مثالٌ جليٌّ لمعرفةِ اللهِ بنا فانها تُدرِكُ ما سيحدثُ منَّا قبلَ أَن يحدُثَ معَ أَنهُ أَعطانا ملءَ

الحرّيةِ للتصرُّفِ كما نشاءُ فكما أنني بعقلي القاصرِ أدركتُ النتائجَ قبلَ الوصولِ اليها أفلا نؤمنُ أنَّ اللهَ الذي لا شيءَ خارجٌ عن دائرةِ معرفتِهِ يعرفُ ماذا سيصدرُ من كلِّ مخلوقٍ قبلَ ان يجري منهُ شيءٌ ولذلك يقولُ الكتاب « انَّ يعقوبَ وعيسوَ قبلَ أن يولَدا وقبلَ أن يعملا خيرًا او شرًّا قالَ اللهُ أحببتُ يعقوبَ وأبغضتُ عيسو » (انظر رو ٩ : ١١) فمحبَّةُ اللهِ للأوَّلِ وقعَت عن سابقِ علمِهِ بما سيعملُ متَّبعًا الشريعةَ الربانيَّةَ كما انَّ كراهتَهُ للثاني صدرت عن علمِهِ الرباني هذا بما سيحدثُ منهُ خروجًا عن دائرةِ البرِّ والقداسةِ . فيجبُ إذن ان نعلمَ أنَّ عينَ اللهِ تراقبُ كلَّ ما يقعُ منا من حركةٍ او سكونٍ وهوَ سبحانهُ وتعالى يعدُّ لنا المكافأةَ حبًّا وكراهةً كما نستحقُّ لأنهُ على الشيءِ يبنى مقتضاهُ فعلينا أن نحسنَ السيرةَ ونتقي السريرةَ من كل مسلكٍ شريرٍ وغايةٍ ذميمةٍ لنكونَ أهلاً لمحبَّةِ اللهِ

ثمَّ انكم ترونَ هذهِ الأصولَ التي يتولَّدُ منها الزهرُ الفائحُ العرفِ أشبهَ باصولِ البصلِ ذي الرائحةِ الكريهةِ وقد أثبتَ العلمُ أنهما من أصلٍ واحدٍ فهذا مثالٌ يرينا أنَّ الأطفالَ متشابهونَ خلقًا لكنَّ الايامَ تكشفُ عن حقائقِهم حينما

يَدرُجونَ ويَشبُّونَ فيَظهرُ مَن هوَ كريمُ السَّجايا ممدوحُ التصرُّفِ ومَن هوَ قبيحُ السيرةِ ذميمُ الأَخلاقِ فعليكم ان تَنتقُوا خيرَ الصِفاتِ لتُظهِرَكمُ الأَيامُ أَفاضلَ حكماءَ

أَنتم ولا شكَّ تُريدونَ أَن تكونوا بينَ أَمثالكمُ الاعزَّاءِ كالزنابقِ ما بينَ الرياحينِ الناضرةِ فاعلَموا ان زَهرةَ الزَّنبقِ تَضُمُّ الى جَمالِها الباهرِ العرَفَ الذكيَّ فانتمُ الذينَ خَلقهم اللهُ على صورتهِ ومِثالهِ يجبُ أَن تعلموا انهُ حبا كم أَجملَ منظرٍ فعليكم ان تُضيفوا اليهِ اعمالَ البرِّ الكريمةِ التي تَفوحُ منها روائحُ الفضلِ العاطرةُ مُنعِشةً النفوسَ البشريةَ ومُسبِّحةً اللهَ القُدُّوسَ وحينئذٍ تُشبِهونَ اللهَ ببِرِّ العدلِ وتَصرُّفِ الوَداعةِ الحكيمِ صورةً ومِثالاً

فيا أَولادي : ان أُصولَ الزَّنبقِ تُنقَلُ من دِيارٍ الى ديارٍ فلا تَفقِدُ شيئاً من مَزاياها والقوَّةِ الكامنةِ فيها وهٰكذا يجبُ أَن تكونَ سيرتُنا طاهرةً ونقيَّةً أَينما كُنَّا وفي أَيِّ عملٍ خَدمنا بهِ وفي أَيَّةِ حالةٍ ماليَّةٍ وَصلَنا اليها

واذا كانتِ الزنبقةُ تُعدُّ أَنفسَ من لِباسِ سُليمانَ لنقاوتِها فاعلَموا إِذَن أَنَّ النَّقاوةَ هيَ خيرُ مِنحةٍ يجبُ أَن نُحافِظَ عليها وأَنَّ المُلوكَ مهما أُوتوا منَ الصولةِ والأَغنياءَ مهما أُعطُوا منَ

الثَّروةِ ليس في إمكانِهم أن يكتَسوا خيراً من حُلَّةِ النَّقاوةِ التي خوَّلها الله لكلِّ مَن انصرفَ اليهِ ملتمساً إياها فاعرِفوا وديعة اللهِ التي أَمَّنكم عليها وهي نقاوةُ الحياةِ واحترِصوا عليها ليكونَ لكم مجدٌ لم يكُنْ اعظمُ منهُ لسُليمانَ على اتِّساعِ ملكهِ ووَفرة غِناهُ وعظَمةِ حكمتهِ

وبما أنَّ المثَلَ الواردَ عن الزَّنبقِ بفَمِ المُخلِّصِ لهُ المجدُ ينُصُّ عن سُمُوِّ شأنِ النقاوةِ وأنَّهُ يفضُلُ كُلَّ منحةٍ سِواها فاعلَموا إذن أنَّ اللهُ اعطى الناسَ أجمعَ حقَّ الارتِواءِ من زُلالِ التعاليمِ الإلهيَّةِ والإكبابِ على أعمالِ البِرِّ وقبِلَ من البائس قليلَهُ بمنزلةٍ تفضُلُ على كثيرِ الغنيِّ كما تعلمونَ عن فلسيِ الأرملة فتساوى الناسُ في نيلِ نعمتي الايمانِ القويمِ والاعمالِ الصالحة واما ما سواهما من نِعمِ الغنى والجاهِ والقوَّةِ البدنيَّةِ فثيابٌ باليةٌ نخلعُها على أبوابِ الحياةِ الخالدةِ لاكتساءِ ما نَنبجهُ لنا بإيماننا وأعمالنا من الملابسِ التي لا تبلى فيكونُ لنا من قدرِ هاتينِ المنَّتينِ حقَّ قدرِهما القولُ بانَّ اللهَ ساوى بينَ جميعِ عبادهِ في إعطائِهم الوسائلَ الخلاصيَّةَ والمراحمَ الربَّانيةَ الأبديةَ وذلك منتهى العدالةِ وغايةُ الرحمة

إذن كونوا في كُلِّ حالةٍ وُحِدتم بها راضينَ وشاكرينَ

مَراحِمَ العليِّ وعاملينَ بالسيرةِ الفُضلى أَعمالَ الصَّلاحِ والبرِّ حاسبينَ دواعيَ التَّعبِ والراحةِ الوقتيَّين متساويةً مظهراً كما أَنَّ أُصولَ الزَّنْبقِ والبَصلِ متساويةٌ مَظْهراً ولكنَّ القُوى الكامنةَ فينا مختلفةٌ كما هيَ مختلفةٌ فيها . وبهذهِ القُوى يقعُ التَفاضُل

فكونوا يا أَولادي زَنابقَ لا بصلاً

الفصل السابع عشر

نهوض الموتى

قدوم رب المنزل ظافراً . ذكر طريقة لدفع شر اللصوص . دخول الاب على بنيه . اعطاؤهُ التحف التي اجتلبها معهُ . فيالج دودة القز . وصف شجرة التوت . الكلام عن حياة دودة القز . مشابهة الطفل لدودة القز . مشابهة الولد لها ايضاً . مشابهة الشاب لها ايضاً . مشابهة الفيلجة للقبر والدودة للجثمان الراقد . دليل على قيامة الاموات . وجوب ان يكون لنا بعد هذهِ الحياة حياةٌ لا تزول

«كمالُ العدلِ يحتِم أَن يكون بعدَ الموتِ دارٌ ثانية لا يتميزُ بها اخٌ عن اخيهِ الاَّ بصلاحِ قلبهِ وطهارة سيرتهِ»

هذهِ الدارُ قد براها إِلهُ الـ كونِ حتى تكونَ دارَ التجارِب .

فرأينا فيها أموراً كثاراً لحدود الإنصاف ليست تناسب
كم ضعيفٍ يسعى فيجني فيحتا زُجناهُ ذاكَ القويُّ الغالبْ
كم فتىً قد بنى ببذلِ حياةٍ فاحتوى مابناهُ آخرُ سالبْ
كم تقيٍّ يلقى حياةَ هوانٍ وينالُ العُلى أليفُ المثالبْ
فكمالُ العدلِ السماويِّ يقضي برءِ دارٍ قد نزّهت عن معايبْ
ليسَ من ميزةٍ بها لسوى طُهْرِ فؤادٍ ومُستحبِّ الرغائبْ
ليسَ مالٌ ولا بَنونَ ولا عزْ مٌ ولا حيلةٌ لنيلِ المطالبْ
تلكَ دارٌ من عزَّ فيها مُقاماً طوّبوهُ فهوَ العزيزُ الكاسبْ

قدِمَ المسترُ بولسُ بعدَ غيبتهِ أشهراً في انكلترا واسبانيا وفرنسا والنمسا والمانيا وقد عثرَ اخيراً على المختلسِ في سويسرةَ وكانَ ذاكَ قد اتّخذَ الملاهيَ وُجهةً فقبضَ عليهِ بيدٍ من حديدٍ واستاقهُ الى الديار الاميركيةِ فاوصلهُ الى السجنِ ودفعهُ الى رجال الحفظ ومضى الى منزلهِ لا يُلوي على شيءٍ . وكانتِ الجرائدُ النيويوركيةُ الكبرى كالتيمسِ والهرالدِ والتريبونِ والصنّ والجرنالِ والورلدِ قد ملأتْ أنهارَ صفحاتها الأُولى بالحرُوفِ الضخمةِ معلنةً فوزَ المسعى بالقبضِ على المختلسِ ولم تستطع نشرَ طريقةِ القبضِ لأنَّ المسترَ بولسَ أبقاها في طيِّ صدرهِ لغايةٍ خصوصيَّة

وكانَ في إمكانِ المستر بولسَ حينما وصلَ الى نيويورك أَن يخاطِبَ زوجتَهُ بالتلفون لكنَّهُ استحسَنَ ان يقدَمَ على حينِ غفلةٍ ليرى كيفَ يكونُ أَولادُهُ في غيبتِهِ فلعلَّ بينهم مريضاً لم تُخبِرْهُ عنهُ او غيرَ ذٰلكَ وهذا الجمودُ معروفٌ بمن كانَ أميرِ كيًّا من سُلالةٍ انكليزيَّةٍ

فلمَّا وَصلَ الى منزلِهِ رأَى أَمامَ المنزلِ كلباً ضخمَ الجُثَّةِ ينظُرُ اليهِ نظرةَ الوحشِ المفترسِ فدنا منهُ المستر بولس غيرَ خائفٍ فنبحَ الكلبُ بصوتٍ عالٍ ولم يتحرَّكْ من مركزِهِ فوقفَ المستر بولس يتأَمَّلُ فيه تأَمُّلَ الخبيرِ بأمرِهِ ويقولُ في سرِّهِ أَحسنتْ اليصاباتُ بما ارتأَت. ثم جاءَتِ الخادمةُ وفتحَتِ الباب

والكلبُ الذي نبحَ لم يكُنْ حقيقيًّا بل صناعيًّا قد اتَّصلَ بداخلِهِ شريطٌ فيهِ مادَّةٌ فونوغرافية (مصوّتة) وهذا الشريطُ ممتدٌّ من تحتِ أُسكُفَّةِ البابِ الخارجيِّ الذي يليهِ ممرٌّ فيهِ ذاكَ الكلبُ الصناعيُّ ووراءَهُ البابُ الرسميُّ للمنزلِ فيتلوهُ رواقُ البيتِ فالغرفُ. فاذا وطِئَت قدمٌ على أُسكفَّةِ البابِ الخارجيِّ اهتزَّ الشريطُ فاحدثَ الصوتَ المشابهَ صوتَ الكلبِ تمامَ المشابهةِ وقد وضعتِ السيدةُ اليصاباتُ هذا الأُسلوبَ

التنبهيّ في غيبةِ زوجها تزايداً في التحرُّصِ لأنّ اللصوصَ يروعهم في الظلامِ صوتُ الكلبِ اكثرَ من صوتِ الشرطيّ

فلمّا فتحتِ الخادمةُ البابَ ابصرت ربّ المنزلِ فتبادلا التحيّةِ ورفعَ المسترُ بولسُ قبّعتَهُ عن رأسِهِ احتراماً لها كما يرفعُها لاعظمِ سيدةٍ جرياً على وجوبِ تقديمِ الكرامةِ للنوعِ اللطيفِ عموماً ثمّ اجتازَ الى داخلِ المنزلِ فشاهدَ فيكتوريا ممتطيةً جوادَها الخشبيّ وحنّةَ وصموئيلَ قد وضعَ كلٌّ منهما يديهِ كلتيهما في حديدتينِ متّصلتينِ بمادّةٍ مرنةٍ ماغطةٍ وهما يجرّبانِ اجترارَهما من حائطٍ الى آخرَ بما أُعطيا منَ القوّةِ وقد نضحَ العرقُ من وجهيهما

فبينما هم في ألعابِهم لاهينَ دخلَ ابوهم فاسرعوا لاعتناقهِ بابتهاجٍ عظيمٍ فعانقهم واحداً فواحداً ثم مضى الى غرفةِ التدريسِ حيثُ كانتِ السيدةُ اليصاباتُ تلقي على بنيها الكبارِ دروساً فسرّتهُ سكينتُهم واهتمامُهم بكلّ كلمةٍ تسقطُ من فمِ والدتهم الحكيمةِ فعانقهم بشوقٍ وافرٍ . ومالبثَ أن مضى الى غرفةِ الحمّامِ فاغتسلَ ثمّ ذهب الى سريرهِ فنامَ بملءِ عينيهِ فلم ينهضْ الاّ بعدَ أن مضى جانبٌ من النهارِ

فاستفاقَ وغسلَ محيّاهُ واكتسى بثيابهِ واذا بخادمٍ من

قِبَلِ شَرِكَةِ نَقلِ الأَمتِعةِ من جزيرةِ المهاجرين قد أَقبَلَ بعربةٍ نقلٌ صناديقَهُ التي كانَ قد أُعطِيَ وُصولاً بها وهذهِ الوُصولُ قِطَعٌ حديديَّةٌ عليها ارقامٌ كلُّ قطعتينِ منها لهما رقمٌ واحدٌ فمتى انتهى القادِمُ الى جزيرةِ المُهاجرينَ تُفحَصُ أَورقُهُ سواءٌ كانَ أَجنبياً او وطَنِياً وتُفحَصُ صناديقُهُ سواءٌ كانَ من مأْموريِ الحكومةِ الاميركيَّةِ او من سِواهم حتَّى لايجتازَ الى القارَّةِ الجديدةِ شيءٌ مما وُضعَ عليهِ رسمٌ الاَّ من بابِ الكمركِ . ثم يَضعونَ في يدِ كلِّ قادِمٍ قِطعةً حديديَّةً ذاتَ نِمرةٍ بدلاً عن كلِ صندوقٍ ويربِطونَ مثيلةَ تلكَ القِطعةِ في الصندوقِ عينهِ ويأْخُذونَ نِمرةَ محلِّ القادِمِ فيوصلُونَ صناديقَهُ الى منزلهِ بعيداً كان او قريباً باجرةٍ قدرُها رُبع ريالٍ عن كلِّ صندوقٍ كبيراً كانَ او صغيراً

فلمَّا وصلتِ الصناديقُ أَدخلَها الخادِمَ الى المنزلِ وأَخذ القِطَعَ الحديديَّةَ وصُولاتِها وتناوَلَ الأُجرةَ القانونِيَّةَ المعيَّنةَ من قِبَلِ الحكومةِ وأَعطى على ورقِ الشركةِ الرَّسميِّ سنَداً باسمهِ يتضمَّنُ وصُولَ الأجرةِ الى يدهِ وذَهبَ . فأَخذَ المستر بولس يُخرِجُ ما في صناديقهِ منَ التُّحفِ التي اتى بها لزينةِ المنزلِ

ولزوجتهِ ولبنيهِ وللخادمة

ولما تناولَ كلٌّ واحدٍ تُحفَتَهُ طاب نفساً وشكرَ الاولادُ أباهم ثمَّ انصرفوا الى مُساعدةِ والدتهم في وَضعِ التُحَفِ المنزليةِ في اماكِنها وقد راقَهم ما حوَتهُ الرَّسومُ من الدِقَّةِ والإتقانِ وما اظهرتهُ التماثيلُ من إحكامِ الملامحِ ومظاهرِ الأخلاق

وكان اهمُّ شيءٍ اكترثَت لهُ والدتُهم فيالجَ (شرانق) افرنسيةً لا تزالُ على حالتها الطبيعيةِ وُضِعت في إناءٍ بلُّوريٍّ بديعِ الصنعةِ فوضعتهُ كأثرٍ مُتناهٍ نفاسةً في وَسطِ الطاولةِ المُقامةِ في مُنتَصفِ غُرفةِ استقبالِ الزائرين

فسألت كاترينُ والدتَها قائلةً — ياوالدتي: إنَّ هذهِ الحبوبَ التي تمثِّلُ ابهامَ اليدِ البشريَّةِ هي جميلةُ المنظرِ ووَضعُها في محلٍّ تتَّجهُ إليهِ الأنظارُ دليلٌ لا محالةَ على أنَّها ذاتُ فائدةٍ معنويَّةٍ فتكرَّمي ببيانِ تلكَ الفائدةِ ليكونَ ابتهاجُنا كاملاً بالرُّوحِ وبالجَسد

ووقعَ هذا السؤالُ عقيبَ أن أتمَّت والدتُها وَضعَ ما جاءَ بهِ الأبُ جميعاً فاجابتِ المُلتمَس وقالت

يا أولادي: انَّ ما ترَونهُ هو الفيالجُ التي تُحلُّ خيوطاً دقيقةً تُغزَلُ في المعاملِ فيكونُ منها أجودُ الأقمشةِ التي تؤخذُ منها

الملابسُ الفاخرةُ والجميلةُ وينسجُ هذهِ الفيالجَ دودةٌ تُدعى دودةَ القزِّ ودُودةَ الحريرِ ولهـا في صنعِها هذهِ الفيالجَ عملٌ يدعو الوقوفُ عليه قلوبَ الناس الى تمجيدِ الباريءِ العظيمِ على ما خلقَ

فهذهِ الدودةُ أشبهُ بالخراطينِ التي نراها في الارضِ الندِيَّةِ ولا سيَّما في أيَّامِ الربيعِ الاَّ انها تختلفُ عنها بلونِها وتجعدِ جلدِها وهيَ تعيشُ على ورقِ شجرٍ يُدعى التوتَ يكثرُ وجودُهُ في الشرقِ الأقصى كالصينِ واليابانِ والشرقِ الادنى كبرِّ الاناضولِ وسوريَّا وفي ايطاليا وفرنسا من قارة اوربَّا وقد امتُحِنَ زرعُهُ مؤخَّراً في احدى ولاياتِ هذهِ الجمهوريَّةِ وفي الولايات المتَّحدةِ البرازيليَّةِ فأتى الامتحانُ بنتائجَ حسنةٍ تُبشِّرُ بمستقبلٍ مجيد

والأُمَّةُ التي لها الشأنُ الأهمُّ في العنايةِ بهذهِ الدودةِ وشجرِها هي الأُمَّةُ الافرنسيَّةُ لكثرةِ معاملِها الحريريَّةِ القائمةِ على الفيالجِ حتى اصبحتْ قُطبَ دائرةِ هذا المُرتزَق

وشجرةُ التوتِ ذاتُ ورقٍ يُشابهُ كفَّ الإنسانِ انبساطاً وفي أطرافهِ نتوءاتٌ بارزةٌ اشبهُ بالاصابعِ من اليدِ وأجودُ الورقِ ما كانَ رقيقاً رخصاً . وهو يجودُ في فصلِ الربيعِ ويُعتنى بهِ ليكونَ غذاءً لدودةِ القزِّ بنوعٍ خصوصيٍّ وإن كانَ

صالحاً لعلف الضأن والماعز والبقر فانّ اتخاذهُ علفاً امرٌ ثانويٌّ والهمّةُ مبذولةٌ عليه لأنهُ طعامُ دودةِ القزّ الوحيدُ

ودودةُ القزّ تأخذُ تتناولهُ في اوائلِ الربيعِ ولا تتمكّنُ من هضمِ غذائها منهُ اوّلاً الاّ اذا كانَ مهروماً هرْماً دقيقاً . وهي تتناولُ الطعامَ اياماً بلا انقطاعٍ ثمّ تقفُ فجأةً عن تناولهِ وتنامُ اياماً وبعدئذٍ تعودُ الى تناولِ طعامها باشتهاءٍ اوفرَ ويُقالُ لتناولها إفطارٌ ولانقطاعها صيامٌ . والقائمونَ بخدمتها يضعونَ لها الطعامَ دائماً حتى تتناولَ منهُ متى شاءت . ويُشارفونَ عليها ليلاً ونهاراً بلا انقطاعٍ ويختارونَ لها الاماكنَ الدافئةَ بشرطِ أن تكونَ ذاتَ هواءٍ نقيٍّ يتجدّدُ حتى أنهم يُقيمونَ خصاصاً[1] في البساتينِ يضعونها فيها وذلكَ بعدَ أن تنموَ وتجتازَ الافطارَ الأوّل

ولا تزالُ تلكَ الدودةُ تنمو شيئاً فشيئاً فتنقطعُ عنِ الطعامِ حتى يمرّ عليها اربعُ صياماتٍ وخمسةُ إفطاراتٍ فحينئذٍ يجيءُ القائمونَ بخدمتها بأحمالٍ منَ الرياحينِ المستدقّةِ الأضلاعِ كالزانِ والشيحِ ويضعونها على أطرافِ الدعائمِ القائمةِ عليها الطباقُ المستقرّةُ عليها الدودةُ فتأخذُ الدودةُ تصعدُ على تلكَ

(١) جمع خصّ بيت من القصب

الرَّياحينِ أفراداً وأزواجاً كأنها أولادٌ يتوقلونَ قممَ الجبالِ

وتستقرُّ كلُّ واحدةٍ في موضعٍ كما يستقرُّ الجُنديُّ في موقفهِ الحربيِّ للكِفاحِ ثمَّ تأخذُ تُبرِزُ من فيها خيطاً تنسجهُ على الشكلِ الذي ترونهُ الآنَ امامكم (اي كعقدتينِ من إصبعٍ) ليكونَ بيتاً لسُكناها . والقويَّةُ هيَ التي يكونُ بيتُها اكبرَ ونسيجُها أقوى وأحكَم . وهذا البيتُ تنسجهُ على نفسِها فمتى تمَّ تكونُ قدِ انحصرت فيهِ من كلِّ الجهاتِ ومنعَ عنها وصولُ الهواءِ وتناولُ الطعامِ فتبطلُ حركتُها ويتغيرُ كيانُها فتبقى قوةُ الحياةِ كامنةً فيها أياماً تنتقلُ فيها هذهِ الدودةُ الى الى شبهِ زيزٍ (١)

ومتى بلغتِ الطورَ الجديد اي صارت زيزاً تمزِّقُ الغلافَ فتقطعُ طيَّاتِ خيطهِ فلا يعودُ نافعاً لنساجتهِ حريراً ولذلكَ توضعُ بيوتُ الدودةِ المسماةُ فيالجَ وهيَ ما ترونهُ الانَ في محلِّ حرارتهُ شديدةٌ تميتُ القوَّةَ الكامنةَ في داخلِ الفيالجِ فلا تتحوَّلُ الى زيزٍ بعدئذٍ

ومتى طارتْ تلكَ القوَّةُ التي تحوَّلت الى شبهِ طائرٍ كانَ

(١) اي شبه دويبة صغيرة تطير وتقف على رؤوس الاشجار تصوّت زيز زيز

بعضُها ذكوراً وبعضها إناثاً فعن كلِّ ذكرٍ وأُنثى يَرِدُ بزرٌ يحفظُ الى آخرِ الشتاءِ في أماكنَ باردةٍ جدًّا ثمَّ يوضعُ حينَ يُقبلُ الربيعُ في محلٍّ دافئٍ جدًّا فيتقوَّبُ اي يتحوَّلُ البزرُ دودةً فيُعتنى بها على الوجهِ الذي سبقَ بيانُهُ . واختيارُ البزرِ الحسنِ فنٌّ خصوصيٌّ ينقطعُ اليهِ فريقٌ يرتزقُ بهِ ويستخدمُ اوائلَ دقيقةً ذاتَ ثمنٍ لتمييزِ جيدِهِ من رديئهِ

هذا ما يجري طبيعيًّا فهل تعلمونَ ما يُعلِّمُنا منَ الحقائقِ الروحيَّةِ التي يجبُ أن نعطفَ اليها بصائرَنا العقليةَ كما عطفْنا الى الفيالجِ بواصرِنا الحسيَّة

انهُ يُعلِّمنا أدقَّ مسألةٍ يهمُّ الناسَ الوقوفُ عليها

انهُ يُعطينا نموذجاً صالحًا يجبُ أن لا نُغفلَ شأنَهُ

انهُ يفتحُ أعيُنَنا لنعرفَ ما ينتظرُنا في النهايةِ السعيدة

انهُ يلفظُ بصمتهِ كلمةً ذاتَ شروحٍ طويلةٍ كلُّها نصحٌ صُراح

إعلموا من هذا أنَّ الدودَ في أوَّلِ امرهِ لا يهضمُ الطعامَ إلاَّ بعدَ أن تجري لأجلهِ كلُّ أنواعِ المساعدةِ . فكذلكَ الطفلُ لا يتناولُ المبدأَ الشريفَ الاَّ بعدَ أن يُعدَّهُ لهُ أبواه .

الدُّودةُ لا تتناولُ الطعامَ اوَّلاً الاَّ مهروماً هرْماً صغيراً

جداً . والطفلُ لا يتناولُ المبدأَ اوّلاً الاّ مُلطَّفاً تلطيفاً عظيماً لِصغرِ مَدارِكِهِ

الدودةُ يجبُ أن يكونَ الاهتمامُ بها ليلاً ونهاراً بلا أنقطاعٍ . والطِّفلُ يجبُ العنايةُ بتهذيبِهِ على الدوام

ألدودةُ تتناولُ الطعامَ متواصلاً بلا كللٍ حتى تصلَ الى حالةٍ تطلُبُ الراحةَ . والطفلُ يجبُ أن يكونَ غرسُ المبادِىءِ القويمةِ في عقلهِ متواصلاً بلا إهمالٍ ولا إمهال حتى تختمِرَ مَدارِكُهُ جيّداً

الدودةُ تصومُ ما بينَ إفطارٍ وإفطارٍ لتتمكّنَ من الانتقالِ من طورٍ الى آخرَ وتُصبحَ أقدرَ على تناوُلِ الطَّعامِ . والوَلدُ ينتقلُ من طورٍ الى آخرَ في الأقتدارِ على تفهُّمِ المبادىءِ والجريِ بموجبِ النصائحِ والإرشاداتِ الوالديّة

الدودةُ متى كَمُلَ نُمُوُّها تهُبُّ بنَشاطٍ لتعملَ ما هوَ المرجوُّ منها فتنسِجُ نَسجاً تُحارُ بإحكامِهِ الافكارُ . والشابُّ النَّجيبُ متى تمَّ تثقيفُهُ بخوفِ اللهِ كما يجبُ يتطوَّعُ لخدمةِ اللهِ والانسانيةِ فيبذُلُ كلَّ قُواهُ العقليةِ والجسديةِ في إتقانِ عملِهِ ويُظهِرُ نفسهُ حكيماً مُحسِناً الى نفسهِ والى الآخرينَ

واذا كانتِ الدودةُ بعدَ أَن يَحتبسَ الهواءُ عنها ويُحيطُ المسكنُ بها من كلِّ الجهاتِ تتحوَّلُ الى شبَهِ طائرٍ اي تصيرُ أَشدَّ اقتِداراً على الجَولانِ وامتناعاً عَلَى الانحصارِ ببطْءِ الحركةِ فتمزِّقُ الغِلافَ الذي أَحاطَ بها أفلا نرى أَنَّ هٰذا مِثالٌ يُعلمنا أَنَّنا بعدَ أَن يُجعَلَ القبرُ غِلافاً لنا سنقومُ من تحتِ التُرابِ ونَطرحُ كلَّ تلكَ الحِجارةِ والتماثيلِ الموضوعةِ فوقَ ارماسِنا وذٰلكَ في يومِ الربِّ الذي كلصٍّ في الليلِ سيجيءُ (١ تس ٥: ٢)

انَّ الدودةَ التي حبست نفسَها هيَ ٱلتي خلعت سُلطانَ الحبسِ إِثرَ ظهورِها بمظهرٍ جديدٍ . فأَجسادُنا هذهِ الفانيةُ هي التي ستقومُ يومَ الدَّينونةِ ولٰكنها بمَظهرٍ جديد

انَّ الدودةَ فازت بمظهرِ حياةٍ جديدةٍ نالتهُ من حياتِها الاولى فالتي كانت جيدةً في حياتها الأُولى ظهرتْ قويةً وجميلةً في حياتها ٱلثانيةِ . والتي لم تكنْ جيدةً ظهرت ضعيفةً ودميمةً . ولذٰلكَ نحنُ سنفوزُ بحياةٍ أَفضلَ من هذهِ ونكونُ كملائكةِ اللهِ في تجرُّدِنا عنِ الحاجاتِ والأَميالِ الجسديَّةِ والذينَ أَحسنوا في حياةِ هذهِ الدنيا يكونونَ كملائكةِ الصَّلاحِ الذينَ نعيمُهم دائمٌ وقدِ ٱنتفى عنهمُ الوقوعُ في الضعفِ البشريِّ لأَنَّ روحَ

الله يكونُ بهم اعظمَ جدًّا ويرَونَ اللهَ وجهاً لوجهٍ (١ كو١٣: ١٢) والذينَ لم يُحسِنوا يكونونَ كملائكةِ الطَّلاحِ في امتناعِ النعمةِ عنهم الى الابدِ وموتِهِم بالرُّوحِ اي سقوطِهم في قبضةِ العذابِ الذي لا نِهايةَ لهُ

فاذا كانَ اللهُ قد منحَ الدودةَ المعدودةَ في مصنَّفِ المخلوقاتِ الدُّنيا أن تنالَ بعدَ ضعفٍ قوَّةَ الحياةِ وقوَّةَ التحرُّكِ فتكونَ لها حياةٌ افضلُ ونشاطٌ أعظمُ أفليسَ منَ المعقولِ ضرورةً أن يُعطينا نحنُ البشرَ اشرفَ مخلوقاتِهِ أن نقومَ من سباتِ الموتِ لحياةٍ اشرفَ بقُوةٍ أعظمَ لانَّ العنايةَ بالحقيرِ والتَّابعِ دليلٌ على العنايةِ بالعظيمِ والمتبوعِ

اذا كانتِ تلكَ الدودةُ تُعطى منحةً تجدُّدِ القُوى لكي تخدِمَنا مرَّةً بعد أُخرى في نَسجِها خُيوطَ الحريرِ فنلبَسها . أفلا يُعطينا اللهُ نحنُ منحةَ القيامِ من رُقادِنا الكبيرِ ليقظةٍ لا نِهايةَ لها حتى نمجِّدهُ تمجيداً أبديًّا

إنَّ اللهَ كاملُ الصلاحِ وكمالَ الصلاحِ يستلزمُ كمالَ الرحمةِ . وانَّ العدلَ المرتبةَ الاولى منَ الرحمةِ فهل منَ العدالةِ أن يموتَ مثلُ لعازرَ الصدِّيقِ الذي ذكرَ المخلِّصُ في مثلِهِ أنهُ كانَ مسكيناً (لو١٦: ١٩—٣١) استوفى البلايا معَ محافظتِهِ على

ناموسِ العليِّ بكلِّ نقاوةٍ فلا ينالُ ثواباً على تقواه . وان يموتَ ذاكَ الغنيُّ الذي كانَ متنعّماً كلَّ يومٍ فاستوفى الخيراتِ معَ مخالفتهِ شريعةَ اللهِ فلا يذوقَ عقاباً على مآثمهِ . لا . ليسَ العدلُ كذلك . إنَّ كمالَ العدلِ يحتمُ أن يكونَ بعدَ الموتِ دارٌ ثانيةٌ لا يتميّزُ بها أخٌ عن أخيهِ الاَّ بصلاحِ قلبهِ وطهارةِ سيرتهِ

إنْ قيلَ إنَّ راحةَ الضميرِ التي ترافقُ الصدّيقَ ولو كانَ في ضيقةِ المسكنةِ وانزعاجَ الضميرِ الذي يصاحبُ الشرّيرَ ولو كانَ في سعةِ الغنى هما ثوابٌ وعقابٌ كافيانِ لإحسانِ المحسنِ وأساءةِ المسيءِ قلنا أنَّ المحسنَ احسنَ لمرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ والمسيءَ أساءَ الى شريعةِ اللهِ تعالى فإحسانُ المحسنِ الى اللهِ الغيرِ المحدودِ يمنحُ رضاهُ الغيرَ المحدودِ واساءةُ المسيءِ اليهِ يجلبُ سخطهُ الغيرَ المحدودِ وعن ذاكَ الرضى والسخطِ يجبُ أن يكونَ الثوابُ والعقابُ غيرَ محدودَينِ وثوابُ الدنيا وعقابُها محدودانِ فلذلكَ وجبَ أن يكونَ بعدَ هذهِ الحياةِ حياةٌ ثانيةٌ نعيمها وشقاؤها لا نهايةَ لهما

فلنتجهْ يا أولادي قلوباً الى ما يرضي اللهَ تعالى بنيّاتنا وأقوالنا واعمالنا ولنفحصْ مخادعَ قلوبنا إثرَ كلِّ عملٍ لنتوبَ عمّا نجريهِ

لغيرِ رِضى الربِّ ولنتقوَّ في كلِ عملٍ يُرضيهِ لنستحقَّ ان نَنالَ النهايةَ السعيدةَ لا بمقتضى اعمالِنا بل بمقتضى القصدِ والنعمةِ ٱلتي أُعطيت لنا في المسيح يسوع (٢تيم ١: ٩) الذي لهُ المجدُ والكرامةُ والتسبيحُ الى أبدِ الدهور

. . . .

هٰكذا تعلِّمُ الأُمُّ الحكيمةُ اولادَها الحقائقَ المسيحيةَ لخلاصِ النفسِ في دارِ البقاءِ ورَغادةِ الحياةِ في دارِ ٱلفناءِ فتكونُ افكارُهم متوقدةً تقوىً وخشوعاً للربِّ وعزائمُهم متشدِّدةً في الاعمالِ المَعاشيةِ وعن مثلِ هٰذهِ المرأةِ يقولُ الحكيمُ سليمانُ «المرأةُ الفاضلةُ تاجٌ لبعلِها (ام ١٢: ٤) امرأةٌ فاضلةٌ من يجدُها لأنَّ ثمنَها يفوقُ اللآلىءَ» (ام ٣١: ١٥) نَسأَلُ اللهَ ان يُكثِرَ من أَمثالِها بينَ النساءِ السوريَّاتِ لسعادةِ العيالِ وٱرتقاءِ الشَّعبِ بمبادئهِ وهِممهِ وتدَيُّنهِ وآدابهِ وأَعمالهِ المَعاشيَّةِ

وٱللهُ أَكرمُ مسؤُول

CA: 244:K45A:c.1
خير الله، امين ظاهر
دروس الحياة الانسانية في مدرسة الله
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000833

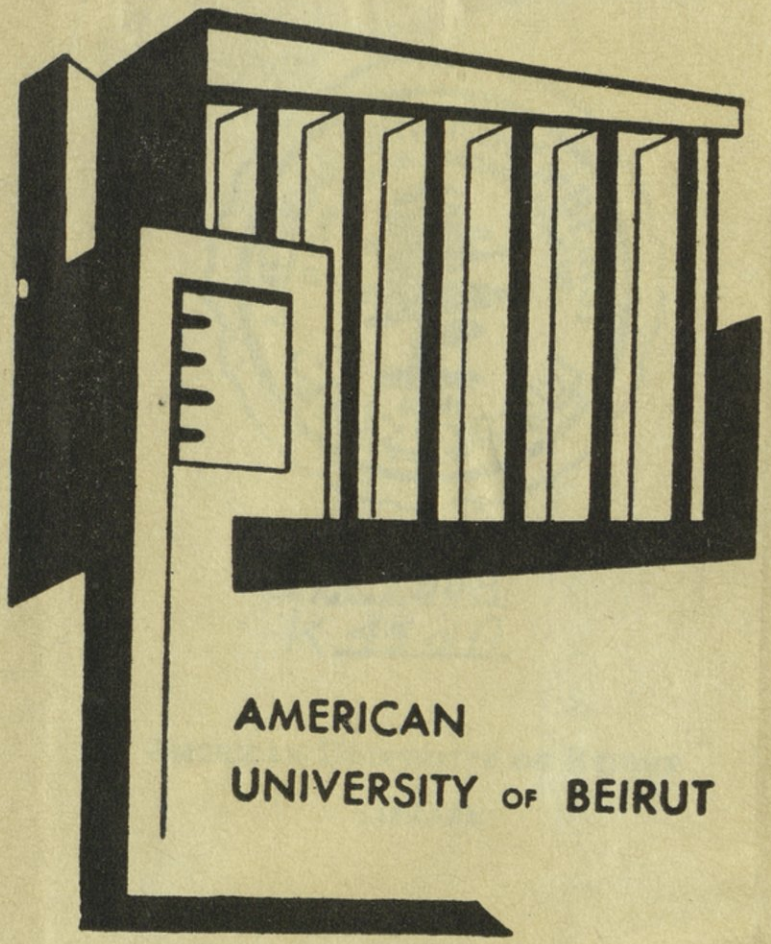

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT